محاضرات في السيرة النبوية

السنة الأولى

كلية الشريعة

جامعة دمشـــق

كلية الشريعة



محاضرات في السيرة النَّبويّة

أَعدَّها

الدكتور بديع السيد اللحام

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ..

وصلاة الله وسلامه على عبده ونبيه محمَّد المبعوث رحمة للعـــالمين وعلـــى آلـــه وصحابته أجمعين.

وبعد:

فهذا كتابٌ في السّيرة النَّبويَّة المطهَّرة وفق الخطة الدَّرسيَّة الجديدة في كليَّة الشَّريعة بجامعة دمشق.

هذا وقد سرنا في هذا الكتاب وفق الخطوات الآتية:

أولاً – مدخل لدراسة السّيرة تشتمل على

– تعريف السّيرة النَّبويَّة، وأهميتها.

– علاقة دعوة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بدعوات الأنبياء السّابقين

– سرُّ اختيار الجَزيرَةِ العربيَّةِ مكاناً لبعثة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

ثانياً – حياة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قبل البعثة.

ثالثاً – حياة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من البعثة إلى الهجرة.

آ – الدَّعوة سرّاً ، والحكمة منها.

ب – الدَّعوة جهراً.

ج – أسلوب الدَّعوة في هذِه المرحلة، والمبادئ التي تؤخذ منه.

رابعاً – الهجرة المباركة إِلى المدينة المنورة، وتأسيس المجتمع الإِسْلامي.

– أُسُسُ المجتمعِ الإِسْلاميِّ الجديدِ:

آ – المسجدُ. ب – التَّآخي. ج – الوثيقة.

خامساً – الأَحداثُ من الهجرة إِلى صلح الحُديبية.

سادساً – الأَحداثُ من صلح الحُديبية إِلى فتح مكَّة.

آ – صلح الحُديبية

ب – بقية الغَزوات.

– الأَحداثُ من فتح مكة إِلى انتقاله صلَّى الله عليه وسلَّم إِلى الرفيق الأعلى.

أ – فتح مكة.

ب – الوفود.

ج – الوفاة.

***

وفي الختام أسأل المولى سبحانه وتعالى أن تقع هذِه المذكرة موقعها الحسن في التَّمهيد لدراسة السّيرة النَّبويَّة في قابل الأيام دراسةً تحليلةً نستمدُ مِنْ خِلالِها العِبر والعظات، وما يستنبطُ من أحكامٍ تنير للعاملين في حقل الدَّعوة الإِسْلاميَّة الطَّريق الأَمثل في العمل على رفعة الإِسْلام والمسلمين في الخافقين.

والحمد لله رب العالمين

أولاً

المدخل[1]

– أهمية السّيرة النَّبويَّة، تاريخاً ودراسةً، وكيف تطوَّرت إلى هذا العصر، وكيف يجبُ فهمها اليوم.

– محمَّد خاتم النَّبيّين، وعلاقة دعوته بالدَّعوات السَّماويَّة السّابقة، وعلاقة الجاهليَّة بما كانَ من بقايا الحَنيفيَّة.

– سرُّ اختيار الجَزيرَةِ العربيَّةِ مكانا لبعثة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

---

[1] جلُّ ما أتينا على ذكره في هذا المدخل مستفاد من كتاب (فقه السّيرة النَّبويَّة) للعلامة الشهيد محمَّد سعيد رمضان البوطي.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أهمية السّيرة النَّبويَّة، تاريخاً ودراسةً

وكيف تطوَّرت كتابتها؟

وكيف يجبُ فهمها اليوم؟

آ – أهمية السّيرة النَّبويَّة تاريخاً:

لا ريب أن سيرة سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم تُشكِّلُ الركيزة الأساسية لحركة التّاريخ الإِسْلامي العظيم الذي يعتز به المسلمون على اختلاف لغاتهم وأقطارهم.

وانطلاقاً من هذِهِ السّيرة دوَّن المسلمون التّاريخ ... ذلك لأن أول ما دونه الكاتبون المسلمون من وقائع التّاريخ وأَحداثِه، هو أَحداثُ السّيرة النَّبويَّة، ثم ترتَّب على ذلك تدوين الأَحداثِ التي تسلسلت على أثرها إِلى يومنا هذا.

حتى التّاريخ الجاهلي، إِنَّما وعاه المسلمون من العرب وغيرهم، واتجهوا إِلى رصده وتدوينه، على هدي الإِسْلام الذي جاء فحدد معنى الجاهليَّة، وعلى ضوء المعلمة التّاريخية الكبرى التي تمثَّلت في مولد سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.

إذن، فالسّيرة النَّبويَّة تُشكِّلُ المحور الذي تدور حوله حركة التدوين لتاريخ الإِسْلام في الجَزيرَةِ العربيَّةِ .. بل هي العامل الذي أثَّر في أَحداثِ الجَزيرَةِ العربيَّةِ أولاً، ثم في أَحداثِ سائر العالم الإِسْلامي ثانياً.

ولقد امتلك فنُّ الرِّواية لأَحداثِ التّاريخ عندَ العرب والمسلمين منهجاً علمياً فريداً ودقيقاً لرصد الوقائع وتمييز الصحيح منها عن غيره، لم يملك مثلَه غيرُهم. غير أنَّهم لم يكونوا ليكتشفوا هذا المنهج، ولم يكونوا لينجحوا في وضعه موضع التَّنفيذ في كتاباتهم التّاريخية، لولا السّيرة النَّبويَّة التي وجدوا أنفسهم أَمامَ ضرورة دينيَّة تحملهم

على تدوينها تدويناً صحيحاً، على نحوٍ لا يشوبها وهم ، ولا يتسلَّلُ إليها خلـــط أو افتراء ..

ذلك لأنَّهم علِموا أنَّ سيرَة سيدنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وسنَّته هما

– المفتاح الأول لفهم كتاب الله تعالى.

– ثم هما النَّموذج الأسمى لكيفية تطبيقه والعمل به.

فكان أنْ نَهض بهم دافعُ اليقينِ بنبوَّة رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وبأنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى، وبأنَّهم يحمِلون مسؤوليَّة العمل بمقتَضاه، وأنَّ الله محاسِبهم على ذلك حِساباً دَقيقاً: نَهض بهم اليَقين بكلِّ ذلك إلى تحمُّل أَقسى الجهدِ في سبيلِ الوصـــولِ إلى منهجٍ علميٍّ تُحصَّنُ فيه حقائقُ السّيرة والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة.

وإنَّما أَقْصِدُ بالمنهجِ العِلميِّ (قواعِد مصطَلح الحديثِ، وعلمَ الجرحِ والتَّعـــديل). فمن المعلوم أنَّ ذلك إنَّما وجِدَ

– أَولاً لخدمة السُّنَّة المطهرة التي لا بدَّ أَنْ تَكونَ السّيرة النَّبويَّة العامَّة قاعدة لها.

– ثم إنَّه أصبَح بعد ذلك منهجاً لخدمة التّاريخ عموماً، وميزاناً لتمييز حقائقِه عن الأَباطيل التي قد تَعْلَقُ به.

يتبيَّن لنا من هذا أنَّ كِتابة السّيرة النَّبويَّة، كانت البوابة العريضة الهامَّة التي دخلَ منها المسلمون إلى دراسة التّاريخ وتدوينه عموماً، وأنَّ القواعِد العلميَّة التي استعانوا بها لضبط الرِّوايات والأَخبار، هي ذاتها القواعِد التي أبدعَتها عقولُ المسلمين شُعوراً منهم بالحاجة الماسَّة إلى حفظِ مصادرِ الإسلامِ وينابيعِه الأوْلى مِـــنْ أنْ يُصـــيبَها أيُّ دخيلٍ يُعكِّرها.

ب – أهميَّة دراسة السّيرة النبويَّة:

إنَّ الغرضَ من التَّعرُّف على سيرتِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ أن يتصوَّر المسلمُ الحقيقةَ الإسْلاميَّة في مجموعِها الاعتقاديِّ والسُّلوكيِّ متجسِّدة في حياتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، بعد أنْ فهمَها مبادئ وقواعِد وأحكاماً مُجرَّدة في الذِّهن.

أي إنَّ دراسةَ السّيرة النَّبويَّة، ليست في حقيقتِها سوى عمل تطبيقيّ يُراد منه تجسيد الحقيقة الإسْلاميَّة كاملةً في مَثَلِها الأَعلى محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم مِنْ خِلالِ المظاهِر التّالية:

1- فهم شخصيَّة الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم (النَّبويَّة) مِنْ خِلالِ الاطِّلاع على حياتِه وظروفِه التي عاش فيها، للتَّأكُّدِ من أنَّ محمَّداً عليه الصَّلاة والسَّلام كانَ حقّاً نبيّاً مُرسلاً من عندَ الله تعالى، و لم يَكنْ مجرَّد عبقريٍّ سَمَت به عبقريَّتُه بينَ قومِه.

2- أَنْ يجِدَ الإنسانُ بين يدَيْه صورةً للمَثلِ الأَعلى في كلِّ شأْنٍ من شؤونِ الحياة الفاضِلة، كي يجعلَ منها دستوراً يتمسَّك به ويسيرُ عليه، ولا ريبَ أنَّ الإنسانَ مهما بحثَ عن مثَلٍ أَعلى في أيٍّ منْ نَواحي الحياةِ فإنَّه واجدٌ كلَّ ذلك في حياةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على أَعظَم ما يكونُ وضوحاً وكمالاً. ولذا جعلَه اللهُ قدوةً للنّاسِ كلِّهم، إذ قالَ: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 31].

3- أَنْ يجِدَ الإنسانُ في دراسةِ سيرتِه عليه الصَّلاة والسَّلام ما يُعينُه على فهمِ كتابِ اللهِ تَعالى وتذوُّق روحه ومقاصده، إذ إنَّ كثيراً من آياتِ القرآنِ إنَّما تُفسِّرها وتجلّيها الأَحداثُ التي مرَّت برسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وموقفه منها.

4- أن تتجمَّع لدى المسلم مِنْ خِلالِ سيرتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، أكبر قدرٍ ممكنٍ من الثَّقافةِ والمعارفِ الإسْلاميَّة الصَّحيحةِ، سواء ما كانَ منها مُتعلِّقاً بالعقيدة

أو الأَحكامِ أو الأَخلاقِ، إذ لا ريبَ أنَّ حياتَه عليه الصَّلاة والسَّلام إِنَّما هي صورة مُجسِّدة نيِّرة لِمجموعِ مبادئ الإِسلامِ وأَحكامِه.

5- أنْ يتوافَر لدى المعلِّم والدّاعي إِلى الإِسلامِ نموذجٌ حيٌّ عن طرائق التَّربية والتَّعليم، فلقَدْ كانَ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم مُعلِّماً ناصِحاً ومُربيّاً فاضِلاً، لم يألُ جُهداً في تلمُّس أَجْدى الطُّرقِ الصّالحة إِلى كلٍّ من التَّربية والتَّعليم خلالَ مُختلَفِ مراحلِ دعوتِه.

وإنَّ منْ أَهمِّ ما يجعلُ سيرتَه صلَّى الله عليه وسلَّم وافيةً بتحقيقِ هذِه الأَهداف كلِّها أنَّ حياتَه عليه الصَّلاة والسَّلام شاملةٌ لكلِّ النَّواحي الإِنسانيَّة والاجتِماعيَّة التي توجدَ في الإِنْسانِ من حيثُ إِنَّه فردٌ مستقلٌ بذاتِه، أو من حيثُ إِنه عضوٌ فعّالٌ في المجتمعِ.

فحياتُه عليه الصَّلاة والسَّلام

- تُقدِّم إلينا النَّموذجَ السّامي للشّابِّ المستقيم في سلوكه، الأَمين مع قومه وأصحابه.

- كما تقدِّم النَّموذجَ الرائع للإِنْسانِ الدّاعي إِلى الله بالحِكمة والموعِظة الحَسنة، الباذل منتهى الطّاقة في سبيلِ إِبلاغِ رِسالتِه.

- وهي النَّموذجُ لرئيس الدَّوْلة الذي يسوس الأُمورَ بحِذْقٍ وحِكمةٍ بالغةٍ.

- وللقائد الحربي الماهر والسّياسي الصّادق المحنَّك.

- وهوَ النَّموذجُ للزَّوج المثالي في حسن معاملته.

- وللأب في حنوِ عاطفته، مع تفريق دقيق بين الحقوق والواجبات لكلٍّ من الزوجة والأولاد.

– وللمسلم الجامع – في دقّةٍ وعدلٍ – بين واجب التَّعبُّد والتَّبتُّل لربِّه، والمعاشرة الفَكِهة اللَّطيفة مع أهله وأصحابه.

لا جرم إذاً، أن دراسة سيرة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليست إلا إبْرازاً لهذِه الجوانبِ الإِنْسانيَّة كلِّها مجسَّدة في أَرفَعِ نَموذجٍ وأتمِّ صورة.

كتابة السّيرة النَّبويَّة:

تأتي كتابة السّيرة النَّبويَّة – من حيث التَّرتيبُ الزَّمنيّ – في الدَّرجة الثّانية بالنِّسبة لكتابة السُّنَّة النَّبويَّة. فلا شكَّ أن كتابة السُّنَّة – أي الحديث النبوي – كانت أَسبق من كتابة السّيرة النَّبويَّة، إذ بُدِء بكتابة الحديثِ – كما هو معلومٌ – في حياةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أما تدوينُ حياةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ومغازيه بصورةٍ عامَّةٍ، فقد جاءَ متأخِّراً عن البدءِ بكتابةِ السُّنَّة والحديثِ الشَّريفِ، وإِنْ كانَ الصَّحابة يهتَّمون بنقل سيرتِه ومَغازيه شفاهاً ...

ولعلَّ أوَّل من اهتمَّ بكتابة السّيرة النَّبويَّة عموماً، هو:

– التّابعيُّ الجليلُ عُرْوَةُ بنُ الزُّبير بن العوّام (المتوفى 92 هـ).

– ثم التّابعيُّ الجليل أَبانُ بنُ عثمانَ بنِ عفّان (المتوفى 105 هـ).

– ثم وَهْبُ بنُ مُنَبِّه (المتوفى 110 هـ).

– ثم شُرَحبيلُ بنُ سعْدٍ (المتوفى 123 هـ).

– ثم محمَّدُ بن مسلمٍ ابنُ شهابٍ الزُّهْريّ (المتوفى 124 هـ).

فهؤلاء يعدّون في مقدِّمة من اهتموا بكتابة السّيرة النَّبويَّة، كما تُعدُّ كتاباتهم بدايةً مباركةً هذا العمل العلمي العظيم.

غيرَ أنَّ جلَّ ما دوَّنه هؤلاء لم يصِلنا إلّا أنَّ الطَّبقةَ التي تلت تلك الثلَّة من كُتّاب السَّيرة تلقَّفت كلَّ ما كتَبوه وأَثبتوه في مُدوَّناتهم التي وصلَ إلينا معظمُها بحمد الله وتوفيقِه.

هذا وقد اتفَّق الباحثون على أَنَّه مِنْ أَوثَق من كَتَبَ السّيرةَ في هذِه المرحلةِ:

1 – محمَّدُ بن إسحاقَ[1] (ت: 152 هـ) له كِتابٌ في (المغازي والسّير) ولئن لم يصلْ إلَينا كتابُه بذاتِه، إلا أنَّ أبا محمَّد عبد الملك المعروف بـ(ابن هشام) قد جاء مِن بعدِه، فرَوى لنا كتابَه هذا مهذَّباً منقَّحاً، ولم يَكنْ قد مضى على تأليفِ ابنِ إسحاقَ له أكثرَ من خمسين سنة.

يقولُ ابنُ خلِّكان: «ابنُ هشامٍ هو الذي جمعَ سيرةَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، من (المغازي والسّير) لابن إسحاقَ، وهذَّبها، ولخَّصها، ... وهي السّيرةُ الموجودةُ بأَيدي النّاس والمعروفَةُ بـ(سيرة ابن هشام)»[2].

2 – موسى بنُ عُقبةَ الأَسديُّ (ت: 141هـ) في (كتاب المغازي) قال الإمامُ أَحمدُ ابن حنبل: «عليكم بمغازي ابنِ عُقبةَ؛ فإِنَّه ثقةٌ»، وكتابُه وإنْ لم يصِلنا كاملاً إلا أَنَّه اختيرَت منه (أَحاديثُ مُنتخبَة مِن مَغازي ابن عُقبة) كما أنَّ الإمامَ أحمدَ قد أَتى على رِوايةِ مُعظمِ مَروياّت موسى في (المسند).

وعلى كلٍّ، فإنَّ مصادِر السّيرة النَّبويَّة التي اعتمدَها سائر الكُتّاب على اختلافِ طَبقاتِهم مَحصورةٌ في المصادِر التّالية:

---

[1] انظر ما كتبه ابن سيِّد النّاس في مقدمة كتابه (عيون الأَثر) عن ابن إسحاق وترجمته.

[2] وفيات الأعيان (177/3).

أوَّلاً – كتاب اللهِ تعالى: فهو المعتمدُ الأوَّل في معرفةِ الملامِح العامَّة لحياةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفي الاطِّلاع على المَراحِل الإجماليَّة لسيرتِه الشَّريفة، بقطعِ النَّظرِ عن أُسلوبِ القُرآنِ في بيانِ ذلك.

ثانياً – كتُب السُّنَّة النَّبويَّة: وهي تلك التي كتَبها أئمَّة الحديثِ المعروفون بصدقِهم وأمانتِهم، كموطَّأ الإمام مالكٍ، ومُسنَد الإمامِ أحمدَ، والكُتُبِ الأُصولِ السِّتَّة[1]، ... وغيرها، وإنْ كانَت عناية هذِه الكتُبِ الأولى إنَّما تنصرِف إلى أَقوالِ رسولِ اللهِ وأَفعالِه من حيثُ إنَّها المصدرُ الثاني للتَّشْريعِ، لا من حيثُ هيَ تاريخٌ يدوَّن.

ثالثاً – الرّواة الذين اهتَموا بسيرة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وحياتِه عامَّةً، وقدْ كانَ في الصَّحابَة الكثيرُ ممن اهتمَّ بذلك، بل ما من صحابيٍّ كانَ معَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في مشاهِد سيرتِه إلا ورواه لسائرِ أَصحابِه ولِمَنْ بعدَه أكثرَ من مرَّةٍ، ولكنْ دونَ أنْ يقوم واحدٌ منهم في بادئ الأَمرِ بجمعِها وتَدوينها[2].

المنهجُ العلميُّ في روايةِ السّيرةِ النَّبويَّة:

قُلنا: إنَّ كِتابَة السّيرة النَّبويَّة، تدخُل في عمومِ ما يُسمَّى تأريْخاً.

ولكن على أيّ منهج اعتمد كُتّابُ السّيرة في كتابتِها وتدوينِها؟

---

[1] يُقصَد بها: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وكتب السنن الأربعة لكلٍّ من أبي داود، والترمذي، والنَّسائيِّ، وابن ماجه.

[2] لا بدَّ هنا من بيان الفرْق بين عمومِ ما يُسمَّى كتابةً وتقييداً، وخصوصِ ما يُسمَّى تأْليفاً أو تَدويناً:
– أما التَّقييدُ فقَدْ كانَ موجوداً بالنِّسبة للسُّنَّة في حياةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كما ذكرنا آنفاً.
– وأما التَّأليفُ – ويرادُ به الجمعُ والتَّنسيق بين دُفَّتَين – فقد ظهَر فيما بَعْدُ، عندَما ظهرَتِ الحاجةُ إلى ذلك.

لقدْ كانَ منهجُهم المعتمدُ في ذلك اتِّباع ما يُسمَّى اليوم بـــ(المذهب الموضوعيّ) في كتابةِ التّاريخِ، طبقَ قواعدَ ستأْتي الإِشارَةُ إِلَيْها.

ومعنى هذا أنَّ كُتّابَ السّيرة النَّبويَّة وعلماءَها، لم تكُنْ وظيفتُهم بصدَد أَحـــداثِ السّيرةِ، إِلاَّ تثبيتَ ما هو ثابتٌ منها، بمقياسٍ علميٍّ يتمثَّل في قواعدِ (علمِ مُصـــطَلحِ الحديثِ) المتعلِّقة بكلٍّ منَ (السَّندِ) و(المتنِ)، وفي قواعدِ (الجَرحِ والتَّعديلِ) المتعلِّقة بـــ (الرّواةِ ومعرفة أَحوالِهم).

فإذا انتهَت بهم هذِه القواعدُ العلميَّة إِلى خبرٍ وواقعةٍ، وقفوا عندها، ودوَّنوهـــا، دون أن يُقْحِموا تصوراتهم الفكريَّة أو انطباعاتهم النَّفسيَّة أو مألوفاتهم البيئيَّة إِلى شيءٍ من تلك الوقائع بأيِّ تلاعبٍ أو تحويرٍ.

لقَدْ كانوا يرون أنَّ الحادثَة التّاريخيَّة التي يتمُّ الوصول إِلى معرفتِها، مِـــنْ خِـــلالِ تطبيقِ هذِه القواعد والضَّوابط العلميَّة التي تتَّسم بمنتهى الدِّقة، حقيقة مقدَّسة، يجبُ أن تُجلَى أَمامَ الأَبصارِ والبَصائر كما هي.

كما كانوا يرَون أَنَّ منَ الخيانةِ التي لا تُغتَفر أن يُنصَّب من التَّحليلاتِ الشَّخصيَّة والرَّغباتِ النَّفسيَّة – التي هي في الغالِب من انعكاساتِ البيئةِ ومنْ ثِمار العصـــبيَّة – حاكمٌ مسلّطٌ يَستبعِد منها ما يشاءُ ويحوِّر فيها كما يريد.

ضمن هذِه الوقاية من الضَّوابط العلميَّة، وعلى أساسٍ من النَّظرة الموضـــوعيَّة إِلى التّاريخِ، وصلتْ إِلَينا سيرةُ المصطَفى صلَّى الله عليه وسلَّم بَدْءاً مِنْ ولادَتِهِ ونَسَبِهِ، إِلى طُفولَتِه، فصبوَتِه اليافِعَةِ، إِلى الإِرْهاصاتِ الخارِقَةِ التي صـــاحَبَتْ مَراحِـــلَ طُفولَتِـــهِ وشَبابِهِ، إِلى بِعْثَتِهِ وَظاهِرَةِ الوَحي التي تَجلَّـــتْ في حَياتِـــهِ، إِلى أَخْلاقِـــهِ وصـــدقِه وأَمانَتِه...، إِلى الخوارق والمعجزات التي أَجراها الله تعالى على يـــدِه، إِلى مراحـــل

الدَّعوة التي سار فيها لتلبيةِ أمرِ ربِّه..؛ إلى الأَحكامِ والمبادئ الشَّرعيَّة التي أوحيَ بها إليه، قرآناً مُعْجزاً يُتْلى، وأَحاديث نبويَّة تَشْرَحُ وتُبَيِّنُ.

لقَدْ كانَ العملُ التّاريخيُّ إذن بالنِّسبة إلى هذِه السِّلسلة من سيرتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، مُنْحصِراً في نقلِها إلينا محفوظةً مكلوءةً، ضمنَ تلك الوقاية العلميَّة التي من شأنِها ضبطُ الرِّوايةِ من حيثُ الإسناد واتِّصاله، ومن حيثُ الرِّجال وتراجمهم، ومن حيثُ المتن أو الحادِثة وما قد يطوف بِها من شذوذٍ ونحوه.

المذاهبُ الحديثةُ في كتابةِ التّاريخِ عامَّةً والسّيرةِ النَّبويَّة خاصَّةً:

في القرن التّاسعَ عشرَ ظهرَتْ طرائقُ كثيرةٌ متنوعَة في كتابةِ التّاريخِ وتدوينه، إلى جانبِ الطَّريقة الموضوعيَّة، أو ما يُسمّونه بـ(المذهب العلميِّ)، وقد تلاقى معظمُ هذِه المذاهب فيما أُطلِق عليه اسم (المذهب الذّاتيّ). ويُعَدُّ (فرويد) من أكبرِ الدُّعاة إليهِ والمتحمسين له.

ولا يرى أَقطابُ هذا المذهب من ضَيْرٍ في أن يُقْحِمَ المؤرِّخُ نزعته الذّاتيَّة أو اتِّجاهه الفكريَّ أوالدّينيَّ أو السّياسيَّ، في تفسيرِ الأَحداثِ وتعليلِها والحكمِ على أَبطالِها .. بل إنَّهم يرَون أنَّ هذا هو واجبُ المؤرِّخ، لا مجرَّد وصفِ الأَخبار وتجميعِ الوقائع العارية.

وهذِه الطَّريقةُ تجعلُ كتابةَ التّاريخِ وتدوينَه عملاً فنيّاً مُجرَّداً، ولا تسمح بالنَّظر إليهِ إلا على أَنَّه عملٌ علميٌّ دقيقٌ.

ونحن، وإن كنّا لسنا بصددِ الحديثِ عن (المذاهب التّاريخيَّة) ونقدِها، فإنَّ علَيْنا ألاَّ نُخْفي أَسَفنا من أَنْ يجدَ هذا المذهبُ – في عصرِ العلمِ والاعتزازِ به وبمنهجيَّتِه – دعاةً إليهِ ومؤمنين به. ذلك لأنَّ هذا المذهبَ كفيلٌ أنْ يمزِّق جميعَ الحقائقِ والأَحداثِ

التي يحتضنُها الزَّمن في صومعتِه القدسيَّة الماثلة أَمام الأَجيالِ، بفعلِ سُبحاتٍ من أَخيلةِ (التَّوسُّم) وشهوةِ الذّات وعصبيَّة النَّفس والهوى.

وكم مِنْ حقيقةٍ مُسِخَتْ، وأَحداثٍ نُكِّست، وأَمجادٍ دثرَت، وبُرءاءَ ظُلموا، تحت سلطانِ هذِه المحكَمة الوهميَّة الجائرة.

فهل كانَ لهذا المذهبِ الجديدِ من تأْثيرٍ على كِتابَة السّيرةِ وطريقةِ تحليلِها؟

والحقيقةُ أنَّ هذا المذهبَ الجديدَ في كتابَة التّاريخِ قد أَصبحَ أَساساً لمدرسةٍ جديدةٍ في دراسةِ السّيرة النَّبويَّة وفهمِها عندَ طائفةٍ من الباحثين.

فكيف نشأَت هذِه المدرسةُ؟ ..

وما هي عواملُ نشأَتِها؟ ..

وما مصيرُها اليوم؟ ..

تعودُ نشأَة هذِه المدرسة إِلى أَيامِ الاحتِلالِ البريطانيِّ لمصرَ، لقَدْ كانَت مصرُ آنذاكَ منبرَ العالَمِ الإِسْلاميِّ كلّه كما نعلمُ، يرنو إليهِ بتفكيرِه وعقلِه كلُّ من أَرادَ أنْ يعلَمَ عنِ الإِسْلامِ عِلماً، كما يعنو إِلى كعبةِ الله بوجهِه كلَّما أَرادَ حجّاً أو صلاةً.

وَكانَ في استمرارِ هذا الصَّوتِ العظيمِ من جانبٍ، وفي استمرارِ إِنصاتِ العالَمِ الإِسْلاميِّ إليهِ من جانبٍ آخرَ، ما لا يدَع للاحتلالِ البريطانيِّ فرصةَ هدوءٍ أو استقرارٍ. ومهما أَخضعَت بريطانيا لنفسِها الوادي كلّه تحتَ سلطانٍ من قوَّة الحديدِ والنّار. فإِنَّه خضوعٌ موقوتٌ لا يُطمأَنُّ إليه، ما بقيتْ للأَزهرِ هذِه القيادة الحيَّة.

لِذا فقَدْ كانَ لابدَّ للاحتِلالِ البريطاني من الإِقدامِ على أَحدِ عِلاجين لا ثالثَ لهما:

أوَّلهما: أنْ يقطِّع ما بين الأَزهرِ والأُمَّة، بحيث لا يَبقى له عليها مِنْ سُلطانٍ.

ثانيهما: أنْ يتمَّ التَّسلُّل إلى مركزِ العمليّات القياديَّة في الأَزهرِ ذاتِه، لتوجِّه قيادتَه الوجهةَ التي تُرضي مصالِحَ الاحتلالِ وتُهيئ له أَسبابَ الطُّمأْنينة والاستقرارِ.

ولم تتردَّد بريطانيا في اختيارِ العِلاجِ الثّاني، نظراً إلى أَنَّه أَقربُ مَنالاً وأَبعَد عنِ الملاحظةِ والانتباهِ[1].

وَكانَ السَّبيلُ الوحيد إلى هذا التَّسلُّل نحو القيادَة العلميَّة والفكريَّة داخلَ الأَزهرِ، الاعتماد على نقطةِ ضعفٍ أَليمةٍ كانت تُعاني منها مشاعرُ الأُمَّة الإِسْلاميَّة عامَّة – بما فيها مصر وغيرها – وهي إِحساسُ المسلِمين بما انتابَهم من الضَّيْعةِ والتَّخلُّف والشَّتات، إلى جانبِ ملاحظتِهم للنَّهضَة العَجيبَة التي نهضَها الغربُ في شتَّى المجالات الفكريَّةِ والعِلميَّةِ والحضاريَّةِ! .. لقَدْ كانَ المسلِمون يتطلَّعون – ولا ريب – إلى اليومِ الذي يتحرَّرونَ فيه منَ الأَثقالِ التي خلَّفتهُم إلى الوراءِ، ليشترِكوا معَ الآخرين في رحلةِ الحضارةِ والمدنيَّة والعلمِ الحديثِ.

منْ هذا السَّبيل تسلَّل الهمسُ، بل الكيدُ الاستِعماريُّ إلى صدورِ بعضٍ من قادةِ الفِكرِ في مصرَ .. ولقَدْ كانَ مؤدَّى هذا الهمس أنَّ الغربَ لم يتحرَّر من أَغلالِه، إلا يومَ أَخضَع الدّين لمقاييسِ العلمِ ... فالدّينُ شيءٌ والعلمُ شيءٌ آخرَ ...، ولا يتمُّ التَّوفيقُ بينَهما إلا بإِخضاعِ الأوَّل للثّاني. وإذا كانَ العالَم الإِسْلاميُّ حريصاً حقّاً على مثل هذا التَّحرُّر الذي سبقَه الغربُ إليهِ فلا مناصَ له مِنْ أَنْ يسلكَ الطَّريقَ ذاتَه، وأنْ يفهمَ إِسلامَه هنا كما فهِم الغربُ نصرانيَّته هناك. ولا يتحقَّق ذلك إلا بتخلُّص الفكرِ الإِسْلاميِّ منْ سائرِ الغيْبيّاتِ التي لا تُفْهَم ولا تَخضَع لمقاييسِ العلمِ الحديثِ.

---

[1] انظر مذكّرات اللّورد كرومر، والاتِّجاهات الوطنيَّة في الأدبِ المُعاصر للدكتور محمَّد محمَّد حسين.

وسرعانَ ما خضعَ لِهذا الهمسِ، أولئكَ الذينَ انبهرَت أَبصارُهم بمظاهِرِ النَّهضةِ الأوربيَّة الحديثة. ممَّن لم تترسَّخ حقائقُ الإيمانِ باللهِ في قلوبِهم، ولا تجلَّت حقائقُ العلمِ الحديثِ وضوابطُه في عقولِهم. فتَنادَوا فيما بينَهم إلى التَّحرُّر مِنْ كلِّ عقيدةٍ غيبيَّةٍ لم تصل إليها اكتِشافاتُ العلمِ الحديثِ، و لم تدخلْ تحتَ سُلطانِ التَّجربةِ والمُشاهدةِ الحسّيّة.

فكانَ أنْ قاموا بما أُسْميَ فيما بعدُ بالإِصلاحِ الدّينيِّ. واقتَضى منهم ذلك، أُموراً عديدةً، منها تطويرُ كتابةِ السّيرة النَّبويَّة وفهمِها، واعتمادُ منهجٍ جديدٍ في تحليلِها، يتَّفقُ وما قصَدوا إليهِ من الإِعراضِ عنْ كلِّ ما يدخلُ في نطاقِ الغيبيّات والخوارقِ التي لا يقفُ العلمُ الحديثُ منها موقِف فهمٍ أو قبولٍ.

ولقَدْ كانَ لهم في الطَّريقةِ الذّاتيَّة في كتابةِ التّاريخِ خير مَلجأ يُعينُهم على تحقيقِ ما قصَدوا إليه.

وبدأَت تظهرُ كُتبٌ وكِتاباتٌ في السّيرةِ النَّبويَّة، تَستبدِلُ بميزانِ الرِّوايةِ والسَّندِ وقواعدِ التَّحديثِ وشروطِه، طريقةَ الاستِنتاجِ الشَّخصيِّ، وميزان الرِّضا النَّفسيِّ، ومنهجِ التَّوسُّم الذي لا يضبطُه شيءٌ إلا دوافع الرَّغبة، وكوامِن الأَغراضِ والمذاهبِ التي يُضمِرها كاتبُها.

واعتماداً على هذِه الطَّريقةِ أَخذَ هؤلاءِ الكاتِبونَ يستبعِدونَ كلَّ ما قد يُخالِفُ المألوفَ، ممّا يدخلُ في بابِ الخَوارِق والمُعجزاتِ، من سيرتِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

وراحوا يروِّجون للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم صفةَ (العبقريَّة) و(العظمة) و(البطولة) وما شاكلَها، شَغْلاً للقارئ بِها عن صفاتٍ قد تجرُّه إلى غير المألوفِ كـ(النُّبوَة)

و(الوحي) و(الرِّسالة) و(المعجِزات) ونحوِها ممّا يُشكِّل المقوِّمات الأوْلى لشخصيَّة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

ومِنْ نَماذِج هذِه الطَّريقةِ الحديثةِ:

– كِتابُ (حياة محمَّد) لحُسين هيكل أَبرز نَموذجٍ لِهذا الاتِّجاهِ في كتابةِ السّيرةِ النَّبويَّة، ويعبِّر مؤلِّفُه عن اتِّجاهِه هذا بصراحةٍ وفخرٍ عندَما يقولُ: «إِنَّني لم آخذْ بما سجَّلته كُتبُ السّيرةِ والحديثِ، لأَنَّني فضَّلت أنْ أَجريَ في هذا البحثِ على الطَّريقةِ العلميَّة» ! ..

– المقالاتُ التي نشرَها المرحوم محمَّد فريد وَجْدي في مجلَّة (نور الإِسْلامِ) تحتَ عنوانِ: (السّيرة المُحمديَّة تحتَ ضوءِ العلمِ والفلسفَةِ) والتي يقولُ في بعضٍ منها: «وقد لا حظَ قرّاؤُنا أَنَّنا نحرصُ كلَّ الحرصِ فيما نكتُبه في هذِه السّيرةِ، على أَلا نُسرِف في كلِّ ناحيةٍ إِلى ناحيةِ الإِعْجازِ، ما دام يُمكِن تعليلُها بالأَسبابِ العاديَّة حتَّى ولو بشيءٍ من التَّكلُّف» .

– الكِتاباتُ الكثيرةُ التي ظهرَتْ لطائفةٍ من المستشرقين عنْ حياةِ سيِّدنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، في نطاقِ أَعمالِهم وكتاباتِهم التّاريخيَّة التي قامَت على المنهجِ الذّاتيِّ الذي ألْمحنا إليهِ آنفاً.

إِنَّك لتراهُم يُمجِّدونَ شخصَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وينوِّهونَ بعظمتِه وصفاتِه الحَميدة، ولكنْ بعيداً عنْ كلِّ ما قد ينبِّه القارئ إِلى شيءٍ منْ معنى النُّبوَّة أو الوحي في حياتِه، وبعيداً عن الاهتمامِ بالأَسانيدِ والرِّوايات التي قد يضَّطرُهم الأخذُ بِها إِلى اليَقينِ بأَحداثٍ ووقائع ليسَ من صالِحهم اعتمادُها أو الاهتمامُ بها.

وهكَذا وجدَ أَبطالُ هذِه المدرسةِ الجديدةِ، في اتِّباعِ المذهبِ الذّاتيِّ في كِتابةِ التّاريخِ، الميدانَ الفسيحَ الذي يُمكِّنهم من نبذِ كلِّ ما لا يعجبُهم من حقائقِ السّيرة النَّبويَّة مهما جاءَت مدعومةً بدلائلِ العلمِ واليقينِ، متَّخذينَ من ميولِهم النَّفسيَّة، ورغباتِهم الشَّخصيَّة وأَهدافِهم البعيدة، حاكِماً مُطْلَقاً على حقائقِ التّاريخِ وتحليلِ ما وراءَه من العَواملِ، وحَكَماً مُطْلقاً لقَبولِ ما ينبَغي قبولُه ورفضِ ما يجبُ رفضُه.

و لم يعدْ خافياً أنَّ هذِه الطَّريقةَ في دراسةِ السّيرة النَّبويَّة خُصوصاً، والتّاريخِ الإِسْلاميِّ عُموماً، إِنَّما كانت مَكيدةً خَطيرةً عَشيَتْ عن رؤيتِها أَعيُنُ البُسطاءِ من بعضِ المسلمين، وصادَفت هوًى وقَبولاً حسناً عندَ طائفةٍ أُخرى من المنافقينَ وأَصحابِ الأَهواءِ.

لقد غابَ عن أَعيُنِ أولئكَ البُسطاء، أنَّ ذلك الهمسَ الاستعماريَّ الذي دعا المسلمين على لِسانِ بريطانيا أيّام احتلالها لمصر إِلى ما يُسمَّى بثورة إِصلاحيَّةٍ في شؤونِ العقيدةِ الإِسْلاميَّة، إِنَّما استهدف في الحقيقةِ نسفَ هذِه العقيدة من جذورِها.

وهكذا، فقَدْ كانَ عمادُ هذِه المدرسة الحَديثة التي أَشرْنا إِليها هنا بإِيْجازٍ، هياجاً في النَّفس، أكثر من أَنْ يَكونَ حقيقةً علميَّةً مدروسةً استحوذَت على العقلِ.

مصيرُ هذِه المدرسةِ اليومَ:

والحقيقةُ أنَّ الاهتمامَ بهذِه المدرسةِ في كِتابةِ السّيرة وفهمِها، والحماسَةَ التي ظهرَتْ يوماً ما لدى بعضِهم في الأَخذِ بها إِنَّما كانَ مُنعطفاً تاريخيّاً ومرَّ .. وعذْرُ أولئكَ الذينَ كُتبَ عليهِم أن يمرّوا بذلكَ المنعَطفِ أو يمرَّ هوَ بهم، أنَّهم كانوا – كما قُلنا – يفتَحونَ أَعينَهم إِذْ ذاكَ على خبرِ النَّهضةِ العلميَّة في أوربا، بعدَ طولِ غفلةٍ وإِغْماضٍ.

وإنَّه لأَمرٌ طبيعيٌّ أن تنبهِر العينُ عندَ أوَّل لقياها مع الضّياء ..، فلا تتبيَّن حقـــائقَ الأَشياءِ، ولا تتميَّز الأَشياءُ بعضُها عن بعضٍ. حتَّى إذا مرَّ وقتٌ ..، واستراحتِ العينُ إلى الضّياء، أخذَت الأَشياءُ تتَمايزُ وبدَت الحقائقُ واضحةً جليّةً لا لَـــبْس فيهـــا ولا غُموض.

وهذا ما قد تمَّ فعلاً، فقد انجابَت الغاشيةُ، وَصَفَتْ أَسبابُ الرُّؤيةِ السَّليمةِ أَمـــامَ الأَبصارِ ..؛ أَبصارِ الجيلِ الواعي المثقَّف اليوم. فانطلَق يتعاملُ مـــع حقيقـــةِ العِلـــم وجوهرِه، بعدَ أولئكَ الذين أُخِذوا بأَلفاظِه وانخدَعوا بشعاراتِه، ثم عادوا وقد أَيقنـــوا ببصيرةِ الباحثِ العليمِ والمفكِّر الحرِّ، بأنَّ شيئاً ممّا يُسمَّى بـــالخَوارقِ والمُعجـــزاتِ لا يُمكِن أنْ يتَنافى في جوهرِه مع حقائقِ العلمِ وموازينِه.

فلقد عَلِمَ كلُّ باحثٍ ومثقَّف اليومَ بأنَّ أَحدثَ ما انتهتْ إليهِ مداركُ العُلمـــاءِ في هذا الصَّدد، هو أنَّ العلاقَة التي نَراها بينَ الأَسبابِ ومسبَّباتِها، ليسَـــت إلا علاقـــةَ اقترانٍ مطَّردٍ، اكتسبَت تَحليلاً، ثمَّ تعليلاً، ثم استُنْبِط منها القانونُ الذي هـــو تـــابعٌ لظهورِ تلكَ العلاقةِ لا العكس.

وقد انقرضَ الزَّمنُ الذي كانَ يظنُّ بعضُ العُلماءِ فيه أنَّ أثرَ الأَسبابِ الطَّبيعية في مسبباتِها أَثَرٌ حتميٌّ يستَعصي على التَّخلُّفِ والتَّغيير. وانتصرَ الحقُّ الذي طالَما نبَّه إليهِ ودافعَ عنه علماءُ المسلمين عامَّة والإمامُ الغزاليُّ خاصَّة، مِنْ أَنَّ علاقات الأَســـبابِ بمسبَّباتِها ليسَت أكثرَ من رابطةِ اقترانٍ مجرَّدة. وما العلمُ في أَحكامِه وقوانينه إلا جدارٌ ينهضُ فوقَ أَساسِ هذا الاقترانِ وحدَه. أمّا سرُّ هذا الاقتِران فهو عندَ ذلـــك الإلـــهِ المُبدِع الذي أَعطى كلَّ شيءٍ خلقَه ثمَّ هدى.

ولقد رأَينا العالِمَ التَّجريبيَّ (دافيد هيوم) كيف يجلّي هذِه الحقيقة بأَنصـــعِ بيـــانٍ صارمٍ من خلالِ منهجِه التَّجريبيِّ.

نعم .. لا بُدَّ أنْ يشترطَ كلُّ إنسانٍ عاقلٍ يحترمُ العقلَ والحقيقةَ، لقَبول أيّ خبرٍ – سواء تضمَّن أَمراً خارقاً أو مأْلوفاً – شرطاً أَساسيّاً واحداً، أَلا وهوَ أنْ يصِل ذلكَ الخبرُ إليهِ عنْ طريقٍ علميٍّ سليمٍ ينهضُ على قواعدِ الرِّوايةِ والإِسْنادِ ومُقتضياتِ الجرحِ والتَّعديلِ، بحيث يورِثُ الجزمَ واليقينَ. وتفصيلُ القولِ في هذِه الموازين العلميَّة العظيمة يستلزِم كلاماً طويلَ الذَّيل لسنا بصدَد شيءٍ منه الآن.

إنَّ رجلَ العلمِ اليومَ ليأخذُ منه العجبُ كلَّ مأخذٍ، عندَما يقفُ أَمامَ هذا الـــذي يقولُه رجلٌ مثل (حسين هيكل) في مقدِّمة كتابه (حياة محمَّد) : «وإِنَّني لم آخذْ بمـــا سجَّلتْه كُتبُ السّيرةِ والحديثِ، لأَنَّني فضَّلتُ أنْ أَجريَ في هذا البحثِ على الطَّريقةِ العلميَّة» ! ..

أي أَنَّه يُطمئنُك إلى أَنَّه لم يأْخذْ حتَّى بما ثبَت في أَصحِّ كُتُب الحـــديثِ – مثـــل صحيحيِّ البخاريِّ ومسلمٍ – حفظاً لكرامةِ العلمِ! .. إذن فإنَّ ما يرويـــه الإِمـــامُ البخاريُّ ضِمنَ قيودٍ رائعةٍ عجيبةٍ من القواعدِ العلميَّة النّادرةِ في روايةِ الكلمةِ والخبرِ، انحرافٌ عنْ جادَّة العِلمِ .. وخروجٌ على موازينه!! على حين تكون طريقةُ الاستنتاجِ والحَدْسِ والتَّخمينِ، وما يسمّونه بـــ(منهج التَّوسُّم)، حفظاً لكرامتِه، والتزاماً لميزانه وجادَّته! ..

أَليسَ هذا من أَفجعِ الكوارثِ النّازلة برأسِ العلمِ؟ ..

كيف ندرس السّيرة النَّبويَّة اليوم؟:

منَ المعلومِ أنَّ محمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم، عندَما ظهرَ في الجَزيرَةِ العربيَّةِ، قـــدَّم نفسَه إلى النّاسِ على:

– أَنَّه نبيٌّ مرسلٌ من قِبَلِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى النّاسِ كافَّة، ليؤكِّد لهم الحقيقةَ التي بُعثَ بها الأَنبياءُ والرُّسلُ الذين خَلوا من قَبْل، وليحمِّلهم المسؤوليَّة ذاتها التي حمَّلها الأَنبياءُ السّابقونَ أقوامَهم، موضِّحاً أَنَّه آخرُ نبيٍّ مرسلٍ في سلسلةِ الرُّسلِ الذين تَعاقَبوا مع الزَّمنِ.

– ثمَّ زادَ نفسَه تعريفاً لهم ، فأَوضَح أَنَّه ليسَ إلاَّ بشَراً من النّاسِ يَسري عليهِ جميعُ سِماتِ البشريَّة وأَحكامِها، ولكنَّ اللهَ ائتمنَه – بوساطةِ الوحيِّ – على تبليغِ النّاسِ رسالةً:

– تعرِّفهم بهوياتِهم الحقيقيَّة.

– وتنبِّههم إلى موقعِ هذِه الحياةِ الدُّنيا منْ خارطةِ المملكةِ الإلهيَّة زَماناً ومكاناً، وإلى مصيرِهم الذي سيَلْقَونه حتماً بعدَ الموتِ.

– وتلفِتُ نظرَهم إلى ضرورةِ أنْ ينسجِموا في سلوكِهم الاختياريِّ مع واقعِهم الاضّطراريِّ الذي لا مفرَّ منه؛ أَي أنَّ عليهم أنْ يكونوا عَبيداً للهِ تعالى بيقينِهم وسلوكِهم الاختياريِّ، كما تحقَّقت فيهم هذِه العبوديَّة بالواقعِ الاضِّراري ..

ثمَّ أكَّد لهم بكلِّ مناسبةٍ أَنَّه لا يَملك أنْ يزيدَ أو يُنقِص أو يبدِّل شيئاً من مضمونِ هذِه الرِّسالة التي حمَّله اللهُ مسؤوليَّة إبلاغِها إلى النّاسِ جَميعاً، بل أكَّد البيانُ الإلهيُّ ذاتُه هذِه الحقيقةَ وذلك في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاوِيلِ، لأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ﴾ [الحاقة: 44 – 47].

إذن، فإنَّ محمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم لم يقدِّم نفسَه إلى العالمِ زَعيماً سياسيّاً، أو قائداً وطنيّاً، أو رجلَ فكرةٍ ومذهبٍ، أو مُصلِحاً اجتماعيّاً .. بل لم يتَّخذ لنفسِه، خِلالَ حياتِه كلِّها، أي سلوكٍ قد يوحي بأَنَّه يَسعى سَعياً ذاتياً إلى شيءٍ من ذلك.

وإذا كانَ الأَمرُ هكذا، فإنَّ الذي يفرضُه المنطقُ علينا، عندَما نريدُ أنْ ندرَس حياةَ رجلٍ هذا شأنُه، وهَكذا يقدِّمُ نفسَه إلَيْنا وإلى النّاسِ أَجمع، أنْ ندرُس حياته العامَّة مِنْ خِلالِ الهويةِ التي قدَّم نفسَه إلى العالمِ على أَساسِها، لنستَجليَ فيها دلائلَ الصِّدقِ أو عدمِه على ما يقولُ! ..

وهذا يقتَضينا، بلا ريبٍ، أنْ ندرُسَ جميعَ النَّواحي الشَّخصيَّة والإنْسانيَّة في حياتِه، ولكن على أنْ نجعلَ من ذلكَ كلِّه قبَساً هادياً يكشِفُ لنا ببرهانٍ علميٍّ وموضوعيٍّ عن حقيقةِ هذِه الهويةِ التي قدَّم نفسَه إلى العالَمِ على أَساسِها، أَكانَ صادقاً في ذلك أَم لا؟.

ولقَدْ كانَ مقبولاً في ميزانِ المنطقِ أنْ نزعُم بأَنَّنا لسنا مضَّطرينَ أنْ نشغَل أَفكارَنا بهذا الذي أَرادَ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يشغَل النّاسَ به مِنْ مَعاني النُّبوَّةِ والرِّسالةِ في شخصِه، لو أنَّ الأَمرَ لم يَكنْ متعلِّقاً بمصيرِنا، ولم تكُنْ لهُ أي علاقةٍ بحرّيتِنا وسلوكِنا.

أَما وإنَّ القضيَّة أَخطرُ من ذلكَ، إذ هي متعلِّقةٌ بذواتِنا، وهي تكشفُ – إنْ صحَّ الأَمرُ وصَدَقتِ النُّبوَّةُ – عن واجباتٍ محدَّدةٍ في المعرفَة والسُّلوكِ، إنْ لم نسعَ إلى تنفيذِها، وقَعنا في مَغبَّة شقاءٍ عظيمٍ وهلاكٍ وَبيلٍ، إذن فلا وجهَ للإعراضِ عن المسأَلةِ بحجَّة أنَّها لا تَعنينا، أو بوَهْم أنَّنا أَحرارٌ في أنْ نُعرِضَ عنها عابثين غير مُكترثين! ..

من العبثِ البيِّن عندئذٍ أنْ نُعرضَ عن دراسةِ هذِه الهويَة التي عرَّف محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم العالَمَ على نفسِه مِنْ خِلالِها، ثم نتَشاغَل بالتأمُّل في جوانبَ أُخرى مِنْ شخصِه لا صلَة لها بنا، وليسَ لها بتلك الهويَةِ أيّ تعلُّقٍ أو مساسٍ.

أجل، وأيُّ عبثٍ أَعبثُ مِنْ أَنْ يقفَ أَمامَنا هذا الرَّجل (محمَّد بنُ عبدِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم)، ليكشِفَ لنا عن ذاتِه، ثمَّ ليقولَ لنا مُحذِّراً بملءِ يقينه ومشاعره: «واللهِ لَتَموتُنَّ، ثُمَّ لَتُبْعَثُنَّ، ثُمَّ لَيَدْخُلَنَّ الْمُحْسِنُ الْجَنَّةَ، والْمُسِيءُ النّارَ، وَأَنَّ ما أَقولُ لَكُمْ حَقٌّ»[1] ثمَّ لا يهمُّنا من شخصِه وكلامِه إلاَّ التَّأمُّل في عبقريتِه أو فصاحتِه وحكمَتِه؟! ..

أَليسَ هذا، كما لو أَقبلَ إليكَ إنسانٌ وأنتَ على مفترَقِ طرقٍ، يعرِّفك منها على السَّبيلِ الموصلِ الهادي ويحذِّرك منَ المتاهاتِ المُهلِكة، فلم تلتفتْ مِنْ كلِّ ما يقولُه لك إلاَّ إلى مظهرِه ولونِ ثيابِه وطريقَةِ حديثِه، ثم رحتَ تجعلُ من ذلكَ موضعَ درسٍ وتحليلٍ تستغرقُ فيه؟! ..

إنَّ المنطقَ يقضي أنْ ندرسَ حياة سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم من شتَّى جوانبها: (نشأَته وأَخلاقه، وحياته الشَّخصيَّة والبيتيَّة، وصبره وكفاحه، وسِلْمه وحربه، وتعامله مع أَصدقائه وأَعدائه) دراسةً موضوعيَّةً قائمةً على منهجٍ علميٍّ سديدٍ، على أنْ نتَّخذ من هذِه الدِّراسةِ سلَّماً للوصولِ إلى نهايةٍ نتأكَّد عندَها من صدقِه أو عدمِ صدقِه في دَعوى أَنَّه مرسلٌ إلى النّاسِ من ربِّ العالمين ..

– فإذا تبيَّن لنا صدقُه كانَ علَيْنا إذاً أنْ نتحمَّلَ مسؤولياتنا وننهضَ بواجباتِنا التي كلَّفنا اللهُ بها عن طريقِه.

– وإنْ تبيَّن لنا عدَمُ صدقِه في دَعواه أَرحْنا أَنفسَنا منَ القلقِ وأَعرضْنا عنْ كلِّ ما يقولُ، وعكَفنا على أَهوائنا ورَغائبِنا النَّفسيَّة نتقلَّب فيها دونَ أن يُعكِّر صفوَها معكِّرٌ.

---

[1] أخرجه الطَّبراني في المعجم الأوسط: (6615)

إذن على هذا المنهجُ الذي يَجبُ أَنْ ندرسَ سيرةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، ونستعرضَ وقائعَ حياتِه، أي أنْ نجعلُ الهوية التي قدَّم نفسَه إلى العالمِ على أَساسِها – وهي هوية النُّبوَّة من لدن ربِّ العالمين – محوراً لدراسةِ حياتِه العامَّة والخاصَّة، لنتبيَّن من خِلالها دلائلَ الصِّدقِ أو عدمه.

وإذا أَردْنا أنْ نكونَ منهجيينَ في الدِّراسة والبحث فإنَّ المنطقَ يقتَضي أنْ نفرضَ الاحتمالات كلَّها، وأنْ لا ننطلِق في دراستنا من أيِّ أَسبقيَّة لا تنهضُ على سندٍ من البرهان العلميِّ السَّليم.

محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم خاتم النَّبيّين وعلاقةُ دعوتِه بالدَّعوات السَّماويَّة السّابقة، وعلاقةُ الجاهليَّة بما كانَ فيها منْ بقايا الحَنيفيَّة

أوَّلاً – علاقُة دعوتِه بالدَّعوات السَّماويَّة السّابقة:

كثيراً ما يتساءَلُ بعضُ النّاسِ: أَكانَ الدّينُ الذي بُعثَ به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى النّاسِ ديناً جديداً مُختلِفاً عمّا بُعثَ به الرُّسلُ والأَنبياءُ من قبلِه، أَمْ هوَ الدّين ذاتُه الذي بُعثَ به سائرُ الرُّسلِ والأنبياءِ من قَبْل؟

والجواب: إنَّ الدّين الذي بُعثَ بهِ والأَنبياء والرُّسل جميعاً، بدءاً من أوَّلهم – وهوَ آدمُ عليه السَّلام – ووصولاً إلى آخرِهم وخاتَمِهم – وهوَ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم – إِنَّما هو دينٌ واحدٌ، وقد سمّاه الله (الإِسْلام) وسمَّى المتَّبعين له (المسلمين) فَقالَ تعالى في مُحكَم بيانِه: ﴿هوَ سَمّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذا﴾ [الحج: 78]

وبيان ذلك أنَّ دعوةَ كلِّ رسولٍ تقومُ على أَساسين اثنين: أوَّلهما العقيدة ، والثاني التَّشريع والأخلاق.

فـــأما **العقيدة** فلم يختلفْ مضمونُها منذ بعثةِ آدم عليه السَّلام إلى بعثـــة خـــاتم النّبيين محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، وهي:

– الإيمانُ بوجود الله ووحدانيته، وتنـــزُّهه عنْ كلِّ ما لا يليق به مـــن صـــفات النَّقص.

– والإيمانُ باليوم الآخرِ والحِساب والجنَّة والنّار ...

فكانَ كلُّ نبيٍّ يدعو قومَه إلى اليقين بهذِه الأُمورِ. وَكانَ كلٌّ منهم يأْتي مُصـــدِّقاً لدعوةِ من قبلِه ومُبَشِّراً ببعثةِ من سيأَتي بعدَه. حتى يظلَّ النّاسُ جـــيلاً وراءَ جيـــلٍ متذكِّرين واجبَهم الذي كلَّفهم اللهُ به، ويعرِفونَ حقيقةَ الكونِ والإِنْسانِ والحيـــاةِ، ويعرِفونَ واقعَ عُبودِيَّتِهم للهِ عزَّ وجلَّ.

وهكَذا فقد تلاحَقتْ بعثةُ الأَنبياءِ والمُرسَلين إلى مُختلَفِ الأُممِ والأقوامِ، ليؤكِّـــد الجميعُ حقيقةً واحدةً أُمِروا بتبليغِها إلى النّاسِ وحملِهم على الإِذْعانِ لها، أَلا وهـــي الدَّينونةُ للهِ عزَّ وجلَّ وحدَه، وهذا ما أَوضَحه اللهُ تعالى للنّاسِ بجلاءٍ في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدّينِ ما وَصَّى بِهِ نوحاً والَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهيمَ وَموسى وَعيسى أَنْ أَقيموا الدّينَ وَلا تَتَفَرَّقوا فيهِ﴾ [الشورى: 13].

وهذا الدّين الواحدُ الذي وصَّى اللهُ به الأَنبياءَ والرُّسلَ جميعاً سمّاه الله (الإِسْلام)، منذُ أقدَم العصورِ إلى هذا اليوم، وإلى أنْ يرِثَ اللهُ الأَرضَ ومَنْ عليها، فَقـــالَ عـــزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الدّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: 19].

والذين يتَّبعونَ هذا الدّين في كلِّ عهدٍ سمّاهم اللهُ (مسلمين):

– قالَ الله عزَّ وجلَّ حكايةً عن إبرهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿ . . . إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمينَ * وَوَصَّى بِها إِبْراهيمُ بَنيهِ وَيَعْقوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدّينَ فَلا تَموتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمونَ﴾ [البقرة: 131– 132]

– وأَخبرَ جلَّ جلالُه عن سحرَةِ فِرْعونَ قائلاً: ﴿قالوا إِنّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبونَ * وَما تَنْقِمُ مِنّا إِلاَّ أَنْ آمَنّا بِآياتِ رَبِّنا لَمّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمين﴾ [الأعراف: 125– 126]

– وحدَّث عن عيسى ابن مريم والحَواريينَ، فَقالَ: ﴿فَلَمّا أَحَسَّ عيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصاري إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنّا بِاللهِ واشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمونَ﴾ [آل عمران: 52]

فإن استَشكلْت قائلاً: فلِماذا يحتفظُ من يدَّعون نسبتَهم إلى موسى عليه الصَّلاة والسَّلام بعقيدةٍ خاصَّةٍ بهم، ويحتفظُ من يدَّعون انتسابَهم إلى عيسى ابن مريم عليه الصَّلاة والسَّلام بعقيدةٍ أخرى خاصَّة بهم أيْضاً وهكذا ..؟

* فالجَوابُ ما قالَه اللهُ عنهم في كتابه المُبين: ﴿إِنَّ الدّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَما اخْتَلَفَ الَّذينَ أوتوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: 19] ولقد كرَّر هذا المعنى ذاته في آيةٍ أخرى فَقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَما تَفَرَّقوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذينَ أورِثوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفي شَكٍّ مِنْهُ مُريبٍ﴾ [الشورى: 14].

ومعنى ذلكَ أنَّ الأَنبياءَ كلَّهم بُعِثوا بالإِسْلامِ وحدَه، وهوَ الدّين الحقُّ عندَ الله عزَّ وجلَّ، وأهلُ الكتابِ من يهودٍ ونصارى يعلَمونَ ذلك، ويعلَمونَ أنَّ الله نَهاهُم أنْ يتفرَّقوا فيما بينَهم إلى عقائد مُتباينة، ولكنَّهم على الرَّغم من ذلك اختَلفوا وتفرَّقوا، وتَقوَّلوا على أَنبيائهِم ورُسلِهم ما لم يَقولوهُ، بغياً بينَهم وافتئاتاً على الله عزَّ وجلَّ.

قالَ اللهُ تعالى مُخبراً عن ذلك: ﴿وَما تَفَرَّقوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذينَ أورِثوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفي شَكٍّ مِنْهُ مُريبٍ﴾ [الشورى: 14]

وَقالَ سبحانه: ﴿وَما تَفَرَّقَ الَّذينَ أوتوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 4]

هذا إلى جانبِ أنَّ المنطقَ العقليَّ يرفضُ تصوُّر وجودِ عقائد سماويَّة مُختلِفة، مع فرض أنَّها جميعاً صحيحةٌ، وأنَّ الأَنبياءَ الذين بُعثوا بها صادِقون، لأنَّ أُمورَ العقيدةِ من نوعِ الأَخبارِ، والإِخْبارُ عن شيءٍ لا يُمكِن أنْ يَختلفَ ما بين نبيٍّ وآخَر، إذا فرَضنا الصِّدق في خبرِ كلٍّ منهما، فمِن غيرِ المعقولِ أنْ يبعثَ أحدَ الأَنبياءِ ليبلِّغ النّاسَ ويخبرَهم بأنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ – سبحانَه عمّا يقولون – ثم يَبعثَ مِنْ بعدِه نبيّاً آخرَ ليبلِّغ النّاسَ بأنَّ اللهَ واحدٌ لا شريكَ له، ويكون مع ذلك كلُّ واحدٍ منهما صادقاً فيما يُبلِّغ عنِ اللهِ تعالى.

وأمّا **التَّشريع** – وهوَ الجانبُ السُّلوكيُّ من الدّين – فمِن الثّابت أَنَّ شَرْيعَةِ كلِّ رسولٍ ناسِخَةٌ للشَّرائعِ السّابقَةِ، إِلّا ما أَيَّدَهُ التَّشْريعُ المُتأَخِّرُ منها، أَو سَكتَ عنْهُ، – وذلِكَ عَلى مَذْهَبِ مَنْ يرى أَنَّ (شَرْيعَةَ مَنْ قَبْلَنا شَرْيعَةٌ لَنا إِذا لَمْ يَرِدْ ما يُخالِفُها) –

ويَنبَغي أنْ نعلمَ أَنَّ كلمَةَ (الدّيْنِ) يصحُّ أَنْ تُطلَقَ ويُرادُ بها اليقينُ الاعتِقاديُّ وحدَه مع الإذْعانِ النَّظريِّ للتَّشريعاتِ السُّلوكيَّةِ البارِزَة والتي لا يُعْذَرُ في جَهلِها أَحدٌ، فيُقال: فلانٌ دينُه الإسْلامُ، إذا كانَ مؤمِناً بعقائدِهِ مُذعِناً بواجباتهِ السُّلوكيَّةِ، ولو لم يُمارِس شيئاً من هذِهِ الواجِباتِ.

وقد نصَّ البيانُ الإلهيُّ على هذا التَّفريقِ بين العقيدةِ والتَّشْريعِ، موضِّحاً ثباتَ الأولى، وأنَّ الرُّسلَ والأَنبياءَ لم يُبْعثوا إلاَّ لتأْكيدِها وتذكيرِ النّاسِ بضَرورةِ التَّمسُّكِ بها، وموَضِّحاً خُضوعَ الثّاني للتَّبديلِ والتَّغييرِ حسب سَيْرِ المصالِحِ البشريَةِ، وذلك في قولِه عزَّ وجلَّ على لِسانِ عيسى ابنِ مريمَ لمن بُعِثَ إليهم: ﴿وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فاتَّقوا اللهَ وَأَطيعونِ * إِنَّ اللهَ رَبّي وَرَبُّكُمْ فاعْبُدوهُ هَذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ﴾ [آل عمران: 50- 51].

ويتَّضح إذنْ مِمّا سبَقَ أَنَّهُ **لا توجَدُ أَدْيانٌ سَماويَّةٌ مُتعدِّدَةٌ صَحيْحَةٌ**. بل لا يُعقلُ ذلكَ، كما أَوضَحنا، وإِنَّما توجَد شرائعُ سماويَّة متعدِّدة نسَخَ اللاَّحِقُ منها السّابقَ، إلى أنِ استقرَّت الشَّريعةُ السَّماويَّة الأَخيْرَةُ التي قضَت حِكمةُ اللهِ أَنْ يَكونَ مبلِّغُها هو خاتمُ الأَنبياءِ والرُّسلِ أَجمعين، محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقد شبَّه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حديثٍ صَحيحٍ مسارَ دَعواتِ الرُّسلِ والأَنبياءِ جَميعاً ببناءٍ واحدٍ اشتَركوا في إقامَتِهِ وتجميلِه، وكانَ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم آخرَ من وضعَ اللَّمساتِ الأَخيرَة فيه، وأَنجزَه بالتَّمامِ والكمالِ، فَقالَ عليه الصَّلاة والسَّلام: «مَثَلي وَمَثَلُ الأَنْبياءِ مِنْ قَبْلي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْياناً فأَحْسَنَهُ

وأَجْمَلَهُ، إِلّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زاوِيَةٍ مِنْ زَواياهُ، فَجَعَلَ النّاسُ يَطوفونَ بِهِ وَيَعْجَبونَ لَــهُ وَيَقولونَ: هَلّا وُضِعَتْ هذِه اللَّبِنَةُ؟! فأَنا اللَّبِنَةُ، وَأَنا خاتَمُ النَّبيّينَ»[1].

ثانياً – علاقةُ الجاهليَّةِ بِما كانَ فيها منْ بَقايا الحَنيفيَّة

الحَنيفيَّة: من أَسماءِ الإِسْلامِ.

وأَصلُ الكلمةِ من (حنف) بمعنى مالَ، وبمعنى استقامَ أيضاً[2].

فكلُّ من أَسلمَ صادِقاً لله تعالى فهو حَنيفٌ، أي مائلٌ عن الأديــانِ والمُعتقــداتِ الأُخرى ، ومستقيمٌ على نهجِ الإِسْلامِ وسَنَنِه.

وكانَ العربُ في الجاهليَّة يلقِّبون كلَّ من يتمسَّك بدينِ إِبراهيمَ عليهِ السَّلامُ وآدابِه بــ(الحَنيف) أي: المائل عن عبادةِ الأَوْثانِ، والمستقيم على توحيــدِ اللهِ والمُتَمسِّــك بشريعَةِ إِبراهيمَ عليهِ السَّلامُ.

والمطلوبُ هنا هو أنْ نعلَم:

– ماهي البَقايا التي كانت لا تَزالُ مستقرَّة ومعروفَة منْ مبادئ الإِسْلامِ الحَنيــفِ وآدابه في الجَزيرَة العربيَّةِ عندَ بعثَةِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.

– وهلْ كانَت هذِه البَقايا – بَدءاً مِنْ عَقيدَةِ التَّوحيدِ إِلى الآدابِ السُّلوكيَّة العامَّة – في تزايد كلَّما امتدَّ العصرُ الجاهليّ وتطاولَ، أم في تناقصٍ؟

---

[1] البخاري في المناقِب، بابُ خاتِمِ النَّبيّينَ صلَّى الله عليه وسلَّم (3535)، ومسلم في الفضائلِ، بابُ ذِكْرِ كَوْنِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم خاتَمَ النَّبيّينَ (2286) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] انظر لسان العرب، مادة (حنف).

ولكي نُجيبَ على هذا السُّؤالِ بدقَّةٍ ينبَغي أنْ نستعرِض بإيجازٍ حالَــة الجَزيــرَةِ العربيَّةِ قبلَ أنْ تنتشِرَ فيها عِبادَة الأَوثانِ، وأنْ نوضحَ العَوامِل التي جعلَتِ الأَوْثــانَ تتسلَّل إِليها، والنّاسُ يُقبِلونَ إِلى عبادتِها من دونِ الله.

كيفَ انتشرَتِ الأَصْنامُ وعبادَتُها في الجَزيرَةِ العربيَّةِ ؟

من المعلومِ أنَّ العربَ هم أَوْلادُ إِسماعيلَ عليه الصَّلاة والسَّلام، فكانَ أنْ تَوارثــوا ملَّةَ أَبيهِم ومِنْهاجَه الذي بُعثَ به من توحيدِ الله والدَّينونة له بالعبوديَّــة والعبــادة والوقوف عندَ حدودِه وتقديسِ حُرُماتِه، وفي مقدِّمة ذلك تعظيمُ البيــتِ الحــرامِ، وتَعظيمِ شَعائرِه والذَّودِ عنه والقيامِ بخدمتِه.

ولّما امتدَّت بهمُ القرونُ وَطالَ عليهمُ الأَمدُ، أَخذوا يَخلطونَ الحقَّ الذي توارَثــوه بكثيرٍ منَ الباطِلِ الذي تسلَّل إليهم، شأن سائرِ الأُممِ والشُّعوبِ عندَما يطولُ عليهم العهدُ، ويغشاها الجهل، ويندسُّ بين صفوفِها المُبطِلون والمُشعوِذون. فــدخلَ فــيهم الشِّرْكُ الذي كانَ مُنتَشراً في الأُممِ والدّوَلِ المُحيطةِ بهم، واعتادوا عبــادَة الأَصــنامِ وتسلَّلت إليهم التَّقاليدُ الباطِلةُ والأخلاقُ الفاحشَةُ، فابتَعدوا بذلِك عن ضياءِ التَّوحيدِ ومنهجِ الحَنيفيَّة وعمَّت بينهُم الجاهليَّة ثم أَخذَت بطبيعَة الحالِ تَزدادُ كثافةً وتأْثيراً، إِلى أن انقشَع عنهم ببعثةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام.

عمرو بنُ لُحَيٍّ أَوَّل من أَدخَل صَنماً إِلى مكَّة:

وَكانَ أوَّل من أَدخَل فيهم الشِّرْكَ وحملَهم على عِبادَة الأَصنامِ عمرو بنُ لُحَيٍّ جدُّ خُزاعَة، كانَ قد تولَّى حجابَة "البيتِ الحَرامِ" بمكَّة.

عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقــولُ لأَكثَمَ بنِ جونٍ الخُزاعيُّ: «يا أَكثَمُ، رأَيتُ عمرَو بنَ لُحَيٍّ بنِ قمَعَةَ بنِ خُندفَ يَجرُّ

قُصْبَه في النّار، فما رأيتُ رجُلاً أشبَه برجلٍ منك بهِ ولا بكَ منه، فَقالَ أَكثَمُ: عسى أنْ يضرَّني شبهُه يا رسولَ اللهِ؟ قال: لا، إنَّك مؤمنٌ وهوَ كافرٌ، إنَّه كانَ أوَّل من غيَّر دينَ إسماعيلَ فنَصبَ الأَوثانَ وبَحَّرَ البَحيرةَ وسيَّبَ السّائبةَ ووصَلَ الوَصيلةَ وحمى الحامي»[1].

ورَوى ابنُ هِشامٍ وغَيرُه كَيفيَّةَ إدخالِ عَمرِو بنِ لُحَيٍّ هذا، عِبادَةَ الأَصنامِ في العَربِ، فَقالَ: «حَدَّثَني بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إلَى الشّامِ في بَعْضِ أُمورِهِ، فَلَمّا قَدِمَ مَآبَ مِنْ أَرْضِ الْبَلْقاءِ، وَبِها يَوْمَئِذٍ الْعَماليقُ - وَهُمْ وَلَدُ عِمْلاقٍ. وَيُقالُ عِمْليقُ بْنُ لاوذْ بْنِ سامَ بْنِ نوحٍ - رَآهُمْ يَعْبُدونَ الأَصْنامَ، فَقالَ لَهُمْ: ما هَذِهِ الأَصْنامُ الَّتي أَراكُمْ تَعْبُدونَ؟ قالوا لَهُ: هَذِهِ أَصْنامٌ نَعْبُدُها، فَنَسْتَمْطِرُها فَتُمْطِرُنا، ونَسْتَنْصِرُها فَتَنْصُرُنا، فَقالَ لَهُمْ: أَفَلا تُعْطونَني مِنْها صَنَماً، فَأَسيرَ بِهِ إلَى أَرْضِ الْعَرَبِ، فَيَعْبُدوهُ؟ فَأَعْطَوْهُ صَنَماً يُقالُ لَهُ (هُبَلُ) فَقَدِمَ بِهِ مَكَّةَ، فَنَصَبَهُ وَأَمَرَ النّاسَ بِعِبادَتِهِ وَتَعْظيمِهِ»[2].

---

[1] سيرة ابن هشام: (76/1) والقُصبُ الأَمعاءُ. وروى الشَّيخانِ عن أبي هُريرَة أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خِنْدِفَ أَبا بَنِي كَعْبٍ هَؤُلاءِ، يَجُرُّ قُصْبَهُ في النّارِ». الحديث بأَلفاظٍ متَقاربة.

والبحيرةُ: ذاتُ الأُذنِ المَبحورَة أي المَشقوقَة، وهي التي يُمنعُ درُّها عن النّاسِ للطّواغيت.

والسّائبةُ: التي كانوا يُسيِّبونَها لآلِهتِهم.

والوصيلةُ: النّاقة تُترَك للطّواغيت إذا بكّرت بأُنثى ثم ثنَّت بأُنثى.

والحامي: الفحلُ من الإبلِ لا يُركَب ولا يُحملُ عليه إذا لقحَ ولد ولدِه.

[2] سيرة ابن هشام: (77/1)، وانظر كتاب الأَصنامِ لابن الكلبي: (8 و 9).

وَهكَذا أَخذَت تنتَشِر عِبادَة الأَوْثانِ في الجَزيرَة العربيَّةِ وأَخذَت تَشيعُ في أَهلِها عَقيدَة الشِّرْكِ، فانسلَخوا بذلك رويْداً رويْداً عمّا كانوا عليه مِنْ عَقيدَة التَّوحيدِ، واستبدَلوا بدينِ إبراهيمَ وإسماعيلَ – وهوَ الإسْلامُ – غيرَه، وانتَهوا إلى مثلِ ما انتهَت إليهِ الأُممُ الأُخرى مِنَ الضَّلالاتِ والقَبائحِ في المُعتَقداتِ والأَفْعالِ.

وَكانَ من أهمِّ ما يسَّر اندفاعَهم إلى ذلكَ كلِّه (**الجهلُ** ، و**الأُميَّةُ** ، و**التَّأثُّرُ بمَن كانَ حولَهم من أَشتاتِ القَبائلِ والأُممِ**).

إلا أَنَّ هذِه الضَّلالات كانت تنتشر فيما بينَهم بالتَّدريجِ، كما هو ثابتٌ ومَعروفٌ من حالِ المُجتمعاتِ الإنْسانيَّة في مُختلَفِ العُصورِ والأَحوالِ.

فلذلك، ظلَّت بقيَّةٌ من النّاسِ – تقلُّ شيئاً فشيئاً مع الزَّمن – متمسِّكةً بعقيدةِ التَّوحيدِ، سائرةً على نهجِ الحَنيفيَّة السَّمحَة:

– تُصدِّق بالبعثِ والنُّشورِ.

– وتُؤمِن بأنَّ اللهَ يُثيبُ المُطيعَ ويُعاقبُ العاصيَ.

– وتُنكِر هذا الذي استحدثَه العربُ من عِبادَة الأَوثانِ وضَلالاتِ الشِّرْكِ.

ولقدِ اشتَهَر من هذِه البقيَة أعدادٌ عُرِفوا بـ(الحُنفاءِ)، منهم (وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ، وَعُثْمانُ بْنُ الْحوَيْرِثِ، وَزَيْدُ بْنُ عَمْرٍو، قَسُّ بنُ ساعِدةَ الإيادي، ورِئابُ الشَّنّيُّ، وبَحيْرا الرّاهب).

كما أنَّ كثيراً ممّا كانَ مَوروثاً من عهدِ إبراهيمَ منْ قواعِد السُّلوكِ والمُعاملاتِ بقيَ مَحفوظاً مطبَّقاً، غير أَنَّها كانَت تتضاءَل ويضعُف سُلطانُها كلَّما تقادَمَ بهم العهد.

وهكذا، فقَدْ كانَت الجاهليَّة العربيَّةُ مصطبغةً – بقدَرٍ ما – بآثارٍ مِنْ شعائرِ الحَنيفيَّة ومبادِئها، وإنْ كانَ الكثيرُ من هذِه الشَّعائرِ لا يكادُ يظهرُ في حياةِ العربِ إلا مشوّهاً

فاسداً. وذلك كـــ: (تعظيمِ البيتِ، والطَّوافِ به، والحجِّ والعمرَة، والوقوفِ بِعرفَة، وهديِ البُدُنِ، والخِتانِ) فأصل ذلك كلُّه مشروعٌ ومتوارثٌ لديهم من عهد إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام، ولكنهم كانوا يطبقون أكثره على غير وجهه ويقحمون فيه الكثير ممّا ليس منه، كـــ(إهلالهم بالحج والعمرة، فقَدْ كانَت كنانة وقريش يقولون إذا أهلوا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» فيوحِّدونه – كما قال ابن هشام[1] – بالتلبية، ثم يُدْخلون معه أَصنامَهم، ويجعلون مِلكها بيده، يَقولُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى لِمُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: «وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكونَ»؛ أَيْ: ما يوَحِّدونَني لِمَعْرِفَةِ حَقّي إلّا جَعَلوا مَعي شَريكاً مِنْ خَلْقي.

والخلاصة أن نشأة التّاريخ العربي إِنَّما نَمَتْ في كنف الحَنيفيَّة السَّمحَة التي بعث بِها الأنبياء جميعاً، فكانت تغمر حياتهم عقيدة التَّوحيدِ، ونور الهداية والإيمان، ثم أخذ العرب يبتعدون عن ذلك الحقّ رويداً رويداً، بعامل امتداد الزَّمن وتطاول القـــرون وبُعْدِ العهدِ، وأخذت حياتُهم تنغمِر بدلاً من ذلك بظُلماتِ الشِّرْكِ وضَلالاتِ الفكرِ وعماهَة الجهلِ، مع استمرارِ بقايا مِنْ معالِمِ الحقِّ القديمِ ومبادئهِ، تخبُّ في سَيْرٍ بطيءٍ مع تاريخِهم، تَذوي وتضعُف مع الدَّهر ويقلُّ أَنصارُها ما بَيْنَ سَنَةٍ وأُخرى.

فلمّا استنارتْ شعلةُ الدّينِ الحَنيفِ مِنْ جديدٍ ببعثةِ خاتمِ الأَنبياءِ محمَّد صـــلَّى الله عليه وسلَّم، أَقْبَلَ الوحيُ الإلهيُّ إلى كلِّ ما قد تكثَّف مِنْ ضلالٍ وظُلماتٍ خِلالَ تلكَ الحُقبةِ الطَّويلةِ فمَحاهُ وأَنارَ مكانَه بقَبَسِ الإيمانِ والتَّوحيدِ ومبادئ العدالةِ والحـــقِّ،

---

[1] سيرة ابن هشام (78/1).

وأَقبلَ إِلى تلك البَقايا التي استَطاعَتْ أن تعيد إِلى مشرِق النّور الجديدِ، ممّا كانَ قد بُعِث به إِبراهيمُ عليه الصَّلاة والسَّلام فأقرَّها وأكَّدها وجدَّد الدَّعوة إِلَيْها.

ولا ريب أنَّ مِنْ نافلةِ القول وفضولِه أَنْ نؤكِّد بأنَّ هذا الذي نُقرِّرُه شيءٌ معروفٌ بالبَداهةِ لكلِّ من أُتيحَ له أَنْ يطَّلِع على واقعِ التّاريخِ العربيِّ القديمِ، لا يَختلِفُ فيه اثنان، ولا يَجهلُه ذو حظٍّ من الثَّقافةِ وإِنْ قلَّتْ.

إِلا أَنَّ هناكَ مَنْ يقولُ - بالرَّغم من بداهَةِ ما قد أَوْضحْناه-: إنَّ العصرَ الجاهليَّ أَخذَ يستيقظُ قُبيلَ البِعثةِ على السَّبيلِ الأَمثل الذي يجبُ اتِّباعُه، وأَخذَتِ الأَفكارُ العربيَّة تثورً على مظاهرِ الشِّرْكِ وعبادةِ الأَصنامِ وتحنُّ إِلى عقيدة التَّوحيدِ، ثمَّ تمثَّلت هذِه اليقظة والثَّورة في ظهور محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم ودعوته التي انتشرت في الأرجاء.

أي إنَّهم يقولون: إنَّ تاريخ الجاهليَّة العربيَّة كانَ يزداد مع الزَّمن بُعداً عن الشِّرْكِ وعبادة الأوثان، وقُرباً من التَّوحيدِ ونور الهداية الإِسْلاميَّة، على الرَّغم من القرون التي تزيدهم بُعْداً عن عهد إِبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام، وتزيدهم استغراقاً في حمأة الشِّرْكِ والتَّقاليد !..

يقولون هذا ، ويؤكِّدونه ، وكأَنَّهم يجهلون فعلاً أَنَّ التّاريخ، يُقرِّر عكس ذلك تماماً، في أبسط ما تنطق به (ألف باؤه) الواضحة المفهومة لكلِّ ذي زاد من الثقافة والفكر؟!

يقولون هذا وكأَنَّهم لا يعلمون ما هو معلومٌ لكلِّ مُثَقَّفٍ عربي أنَّ الصَّنم الذي جاء به عمرو بن لُحَيٍّ ووضعه عندَ الكعبة أخذ يتوالد، ويوضع إِلى جانبه مثله، حتى أصبح عدد الأَصنامِ المنتشرة حول الكعبة في العام الذي بعث فيه رسول الله صلى الله

عليه سلم ثلاثمئة وستّين صنَماً، وإنَّك لترى في هذِه الأعداد المتزايدة من الأَصنامِ عندَ بعثة النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم في تناقصٍ وإِدْبارٍ أم في تزايدٍ وإقبالٍ؟!

وربما احتجّوا بأصواتٍ كانت ترتفع هنا وهناك، قُبيل بعثته عليه الصَّلاة والسَّلام تُنكر الشِّرْكَ، وتدعو إِلى الإيمان باللهِ وحده، كالكلمات التي كانَ يقولها قُسُّ بن ساعدة الإيادي، وكالبيت المشهور:

أربٌّ يبول الثُّعلبان برأسه ... لقد ذلَّ من بالت عليه الثَّعالب

ويغيب عنهم أن تلك الأصوات كانت بالنسبة إِلى أمثالها قبل عدَّة قرون أشبه أَنْ تَكونَ بالأطلال الباقية من بناء تهدَّم واستحال أنقاضاً.

كل باحث متحرِّرٍ من الأَسبقيات الفكريَّة، يعلم أن العهد الذي بُعث فيه محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، إِنَّما كانَ أبعد العهود الجاهليَّة عن حقائق التَّوحيدِ ومبادئ الإِسْلام بالنِّسبة لسائر العهود التي سبقته.

أمّا تلك البقايا التي لم تنطفئ ببعدٍ من معالم الحنين إِلى التَّوحيدِ والتسامي فوق تلك التقاليد الشائعة فلم تكُنْ تبلغ عشر معشار ما كانَ موجوداً من ذلك قبل بضعة قرونٍ ... وقَدْ كانَ المفروض إذن حسب تصوُّر هؤلاء النّاسِ لمعنى النبوة والبعثة المُحمديَّة، أَنْ تَكونَ بعثته عليه الصَّلاة والسَّلام قبل الزَّمن الذي بعث فيه بعدَّة قرونٍ وأجيالٍ!! .. لأنَّ الأُمَّة العربيَّةَ كانت إذ ذاك أكثر إقبالاً إِلى التَّوحيدِ، وأقلّ استغراقاً في الوثنية والشِّرْكِ.

سرّ اختيار الجَزيرَة العربيّة مكاناً لبعثة خاتم الأنبياء محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام

لا بدّ لنا قبل أن نلج للحديث عن سيرته صلَّى الله عليه وسلَّم، وعن الجَزيرَة العربيّة التي نشأ فيها واختاره الله منها – مِنْ أَنْ نستجلي الحِكمَة الإلهية التي اقتَضَتْ

أَنْ تَكونَ بعثته عليه الصَّلاة والسَّلام في هذِه البقعة من العالم دون غيرها، وأَنْ تَكونَ نشأة الدَّعوة الإِسْلاميَّة على يد العرب قبل غيرهم.

ولبيان هذا ينبغي أولاً أن نعلم خصائص العرب وطباعهم قبل الإِسْلام، وأن نتصوَّر البقعة الجغرافية التي كانوا يعيشون فيها وموقعها ممّا حولها، وأن نتصوَّر في مقابل ذلك ما كانت عليه الأُمم الأُخْرى إذ ذاك؛ كالفرس والروم واليونان والهنود، من العادات والطِّباع والخصائص الحضاريَّة.

ولنبدأ أولا بعرضٍ موجزٍ لما كانت عليه الأُمم التي تعيش من حول الجَزيرَةِ العربيّة قبيل الإِسْلام.

حالة العالم عندَ بعثة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام[1]

كان يتصدَّر العالم إذ ذاك دولتان اثنتان، تتقاسمان العالم المتمدين هما: فارس والروم، ويأتي من ورائهما اليونان والهند.

– **أَمّا فارس** فقَدْ كانَت

– حقلاً لوساوس دينيَّة فلسفيَّة متصارعة مُختلِفة، كانَ فيها الزَّرادشتيَّة التي اعتنقها ذوو السُّلطة الحاكمون، وَكانَ من فلسفتها تفضيل زواج الرَّجل بأمِّه أو ابنته أو أخته، من ذلك أنَّ كسرى يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوَّج بابنته.

– هذا إِلى جانب انحرافات خُلقيَّة مشينة مُختلِفة لا مجال لسردها هنا.

---

[1] يُنظر في هذا الموضوع أيضاً ما كتبه السيد أبو الحسن الندوي في كتابه السّيرة النَّبويَّة تحت عنوان: إطلالة على البلاد والأُمم في القرن السّادس المسيحيّ (69 – 78).

وَكانَ فيها (المزدكيَّة) التي قامت كما يقول الإمام الشَّهرستاني على فلسفة أخرى هي حِلُّ النِّساء وإباحة الأَموال، وجعْلِ النّاسِ شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنّار والكلأ، وقد استجاب لهذِه الدَّعوة أصحاب الرُّعونات والأهواء وصادفت لديهم قَبولاً عظيماً[1].

– **وأَمّا الرّومان**، فقد

– كانت تسيطر عليها الرّوح الاستعماريَّة.

– وكانت منهمكةً في خلافٍ ديني بينها من جهة وبين نصارى الشام ومصر من جهةٍ أخرى، وكانت تعتمد على قوَّتها العسكريَّة وطموحها الاستعماري في مغامرة عجيبةٍ مِنْ أَجلِ تطويرها للمسيحية والتَّلاعبِ بِها حسبما توحي به مطامعها وأهواؤها المستشرية.

– ولم تكُنْ هذِه الدَّولة في الوقت نفسه أقلَّ انحلالاً من دولة الفرس، فقَدْ كانَت تسودها حياة التَّبذُّل والانحطاط والظُّلم الاقتصادي من جرّاء كثرة الإتاوات، ومضاعفة الضَّرائب[2].

– **أَمّا اليونان:** فقَدْ كانَت غارقةً في هلوساتٍ من آرائها الفلسفيَّة الجانحة، وأساطيرها التي عُرِفَتْ بِها والتي اتَّخذت منها ديناً ومعبوداً لها.

لقد تميَّزت حضارتها بالنَّزعة الفنيَّة الأسطوريَّة، والتي تجلَّت في مظاهر شتى لا مجال في هذا المقام لتفصيل الحديث عنها.

---

[1] راجع الملل والنحل للشهرستاني: (2/86 و 87)

[2] ينظر دائرة المعارف لفريد وجدي.

– **وأَمّا الهند،** فقَدْ كانَت – كما قال عنها الأستاذ أبو الحسن الندوي –: «إنَّـــه قد اتَّفقت كلمة المؤلِّفين في تاريخها أن أحطَّ أدوارها ديانةً وخُلقاً واجتماعاً ذلـــك العهد الذي يبتدئ من مستهلِّ القرن السّادس الميلادي، فقد ساهمت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التَّدهور الأخلاقي والاجتماعي»[1].

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي ملخِّصاً حالة العالم في تلك الحقبة من الزَّمن: «ممّا لا شكّ فيه أنّ الوثنيّة كانت منتشرة في العالم المعاصر كلّه، لقَدْ كانَت الدنيا كلّها من البحر الأطلسيّ إلى المحيط الهادىء غارقة في الوثنيّة، وكأنّما كانت المسيحية والديانات السّاميّة والديانة البوذيّة تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة»[2].

هذا، ويجبُ أن نعلم أن القدر المشترك الذي أوقع هذِه الأُمم المُختلِفة فيما وقعت فيه من انحلالٍ واضطرابٍ وشقاءٍ، إنَّما هو الحضارة والمدنيَّة اللَّتان تقومان على أساسٍ من القيَمِ المادّية وحدِها دون أَنْ يَكونَ ثَمَّة مَثَلٍ أعلى يقود هذِه الحضارة والمدينَّـــة في سبيلهما السَّوي المستقيم، ذلك لأنَّ الحضارة بمُختلَفِ مقوِّماتها ومظاهرها ليســـت سوى وسيلةٍ وسبب .. فإنَّ عَدِمَ أهلها التَّفكير الصّائب والمَثل الأعلـــى الصَّـــحيح استحالت الحضارة في أيديهم إلى وسيلةٍ للنُّزول بها إلى دَرْكِ الشَّقاء والاضـــطراب، أَمّا إنْ أوتيَ أهلُها مقياساً من العقل الرَّشيد – الذي قلَّما يأتي إلاَّ بواســـطة الـــدّين والوحي الإلهيِّ – فإنَّ القيَمَ الحضاريَّة والمدنيَّة كلّها تُصبحُ وسائل جميلة ســـهلة إلى السَّعادة التّامة في مُختلَفِ أنواعها ومظاهرها.

---

[1] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: (28).

[2] السّيرة النُّبويَّة: (66).

حال الجَزيرَةِ العربيَّة:

فلننظر بعد هذا إلى الأرض التي بُعث فيها محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، لقَدْ كانَت هادئة، بعيدة بل منعزلة عن مظاهر هذِه الاضطرابات كلِّها

– فلم يَكنْ لدى أهلها من التَّرف والمدنيَّة الفارسيَّة ما يجعلهم يتفنَّنون في اختراع وسائل الانحلال وفلسفة مظاهر الإباحيَّة والانحطاط الخُلقي ووضعها في قوالب من الدّين.

– و لم يَكنْ لديهم من الطُّغيان العسكري الروماني ما يبسطون به أيديهم بالتَّسلُّط على أي رقعةٍ ممّا حولهم.

– و لم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليونانيِّ ما يجعلهم فريسةً للخرافات والأساطير والأوهام.

– و لم يَكنْ لهم أي زادٍ ثقافيٍّ يخوِّلهم الدُّخول في أي نهضةٍ فكريَّةٍ، تشريعيَّة كانت أم سياسية أو غيرها في نطاق الإصلاح الاجتماعيِّ، إذ كانوا أمَّة أمّيةً تعيش مرحلة البداوة من حياتها الاجتماعيَّة العامَّة.

وكانت تتمتَّع إلى جانب ذلك بطبيعةٍ أشبه ما تكون بالمادَّة (الخام) التي لم تنصهر بعدُ في أي بوتقة محوّلة، فكانت تتراآى فيها

– الفطرة الإنْسانيَّة السَّليمة

– والنَّزعة القويَّة إلى الاتِّجاهات الإنْسانيَّة الحميدة، كالوفاء والنَّجدة والكرم والعفَّة.

– وإنْ كانَت تعوزهم المعرفة التي تكشِف لهم الطَّريق إلى كلِّ ذلك. إذ كانوا يعيشون في ظُلمةٍ من الجهالة البسيطة والحالة الفطريَّة الأوْلى، مِنْ أَجلِ هذا كانَ

يغلب عليهم أن يضلّوا الطَّريق إلى تلك القيَمِ الإنْسانيَّة، فيقتلوا الأولاد بدافع العفَّةِ والشَّرف، ويتلِفوا المال الضَّروريَّ بدافع الكرم، ويستثيروا فيما بينهم أسبابَ الحروب والمعارك بدافع الإباء والشَّهامة.

وهكذا يتلخَّص الفرق بين الأُمَّة العربيَّة وغيرِها من الأُمم الأُخْرى بأنَّ الأَخطاء والانحرافات التي كانت تنجرف إليها الأُمَّة العربيَّة إنَّما كانت نتيجة جهلٍ وضلالٍ، بينما كانت الأُمم الأُخْرى تستهدي لانحرافاتها الخطيرة بمشاعل الحضارة والمدنيَّة وأصول الثَّقافة.

أي أن هذِهِ الأُمم كانت تتقلَّب في حمأةِ الفساد عن تبصرٍ وتخطيطٍ وفكرٍ، بينما كانَ العرب ينجرفون إلى بعض هذِهِ المفاسد بعذر الجهالة وبدائية النَّظر والفكر.

لماذا كانت بعثة خاتم الأنبياء من العرب الجهّال لا من تلك الأُمم المتحضرة؟

والآن وقد تبيَّن لك الفرق جلياً بيْن حال العرب والأُمم الأُخْرى في عصر البعثة بوسعك أن تعلم في أي أمَّةٍ يجبُ أن يظهرَ هذا الرَّسول الذي سيبعث إلى النّاسِ عامَّةً، بحيث تكون هويته (نبيّاً مُرْسلاً) قريبة الفهم إلى العقول والأفكار، لا مشوبةً بدواعي الشُّكوك ممزوجة بالشُّبه والملابسات؟.

فلو أنَّ هذا النَّبيّ بُعث بين أي أمَّةٍ لها شأن في الحضارة والمدنيَّة والمعارف المُختلِفة، إذن لثارت الشُّكوك في العقول، بأنَّ المسألةَ رُبَّما كانت مظهراً لسلسلةِ التَّجارب الحضاريَّة والأَفكار الفلسفيَّة والتَّشريعيَّة، أبدعت أخيراً هذِهِ الحضارة الإنْسانيَّة الفذَّة وهذا التَّشريع المتكامل، ذلك لأنَّ المناخ واحِدٌ، والأُمَّة تتطوَّر من تجربة إلى أخرى ..

– فلماذا لا يكون هذا الذي يقال عنه: (نبيٌّ) مفكِّراً ممتازاً امتصَّ تجارب أُمَّته في ميدان الفكر الحضاريِّ والفلسفيِّ، فجاء من ذلك بهذا الإبداع؟

– ولِماذا لا تكون فتوحاته طوراً مُتَرَقياً للهدف الاستعماريِّ البعيد، ولا سيَّما وقد عُرِفَتْ أُمَّتُه بترعتها الاستعماريَّة خلال القرون؟..

– ولِماذا لا يكون التَّشريع الذي جاء به قانوناً ممتازاً متطوِّراً عن موسوعة (جوستنيان) أو تشريعات (زرادشت)، أو جمهوريَّة (أفلاطون)؟

كلُّ هذِه شكوكٌ وملابسات يُعْذَرُ العقلُ – أي عقلٍ كانَ – في الوقوف عندها، وفي التَّأَثُّر بها، ولا بُدَّ أنْ يعاني صعوباتٍ جُلَّى في طريق تخلُّصِه من سُلطان هذِه الشَّوائب والأوهام.

فمن هنا شاءت حكمة الإله الرَّحيم بعباده أن يجعل بعثة نبيِّه محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام في تلك الأُمَّةِ الأُمِّيَّة الجاهلة، التي ليس لها ماضٍ حضاريٍّ ولا ترف مدنيٍّ، ولا جنوح ثقافيٍّ، ولا نزوع استعماريٍّ، كما قال عزَّ وجلَّ ﴿هوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيّينَ رسولاً مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: 2] إذ لا يمكن أن يطوف شيءٌ من تلك الشُّكوك الآن بمعنى نبوَّته وحقيقة رسالته، فإنَّك لن تجد أي نسبٍ بين طبيعة الأرض والأُمَّةِ التي بُعِثَ فيها، وما جاء به تشريع ومبادئ وتصوُّرات علميَّة دقيقة عن حقيقة كلٍّ من الكون والإِنْسانِ والحياة.

وبذلك تكون معجزة النُّبوَّة والشَّريعة الإِسْلاميَّة واضحةً في الأذهان، لا لَبْس بينها وبين الدَّعوات البشريَّة المُختلِفة، وهذا ينطوي – كما هو واضح – على رحمةٍ عظيمةٍ بالعباد.

وهذِه الحِكمَة تذكِّرنا، بالحِكمَة التي اقتَضَتْ أنْ يجعل اللهُ رسولَه هذا أمِّيّاً، لم يقرأ كِتاباً و لم يخطَّ بيمينه حرفاً، فالمعنى في كلٍّ واحدٌ ألا وهوَ أن تصفو دلائل نبوّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أَمام الأفكار والعقول الحرَّة، فلا يشوبها أي لَبْسٍ أو وهْمٍ، إذ

كما أنَّ أُمّيةَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم تنفي احتمال أَنْ يَكونَ القرآن من تأليفه، أو أن ما تضمَّنه من تشريعات وأحكامٍ وقصصٍ عن الأُمم البائدة من مخزوناته الثَّقافيَّة، فكذلك أُمّية القوم الذين بُعِثَ فيهم تنفي احتمال أَنْ يَكونَ متأثِّراً بهم منجرفاً في تيارهم، إذ ليس لهم أي تيّارٍ ثقافيٍّ ولاحضاريٍّ، وليس لهم أيّ سلطانٍ استعماريّ.

أسباب أخرى لهذا الاختيار:

علماً أن هنالك حِكَماً أُخْرى لاختيار الله رسوله في العرب دون غيرهم، ينبغي أَلاَّ تخفى على الباحث، نجملها فيما يلي:

أولاً – من المعلوم أن الله عزّ وجلّ جعلَ البيت الحرام مثابةً للنّاسِ وأمْناً، وجعله أوَّل بيتٍ وضِعَ للنّاسِ للعبادة وإقامة الشَّعائر الدّينيَّة، كما حقَّق الله في ذلك الوادي دعوة أبي الأنبياء إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام. ومن لوازم هذا كلِّه ومقتضياته أَنْ تَكونَ هذِه البُقعةُ المباركةُ نفسُها مهداً للدَّعوة الإِسْلاميَّة التي هي ملَّة إبراهيمَ وأَنْ تَكونَ بعثة خاتم الأَنبياء ومولده فيها، كيف لا وهوَ من نسل إبراهيمَ عليه وعلى نبيِّنا أَفضَل الصَّلاة والسَّلام.

ثانياً – البقعة الجغرافيَّة للجزيرة العربيَّة ترشِّحها للقيام بعبءِ مثل هذِه الدَّعوة، بسبب أَنَّها تقع في نقطة الوسط بين الأُمم والبلاد التي تموج من حولها، ونظرة منك إلى خارطة العالم توضح لك هذِه الحقيقة الهامَّة.

وهذا هو الذي جعل الدَّعوة الإِسْلاميَّة تنتشر بين جميع الشُّعوب والدّول المحيطة بها في سهولةٍ ويُسْرٍ، وإذا أعدت النَّظر إلى سَيْرِ الدَّعوة الإِسْلاميَّة في صدر الإِسْلام وعصر الخلفاء الرّاشدين وَجدَّت مصْداقَ ذلك جليّاً واضحاً.

ثالثاً – اقتَضَتْ حِكمةُ اللهِ تعالى أَنْ تَكونَ اللُّغة العربيَّة هي لغة الدَّعوة الإِسْلاميَّة الأوْلى، وأَنْ تَكونَ هي الأداة المفضَّلة لترجمة كلام الله عزّ وجلّ وإبلاغه إيّانا.

ولا ريب أن هذا الاختيار إِنَّما ترتَّب على موجبات ذلك، وهي تتمثَّل في مزايا هامَّةٍ اختصَّت بِها اللُّغة العربيَّة دون غيرها من اللُّغات، لا مجال للدُّخول في تفصيل شيء منها في هذا المقام.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

من المولد إلى البعثة

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أولاً – نسبه الشريف صلَّى الله عليه وسلَّم

أَمّا نسبه الشريف فهو: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ – ويُدْعى شَيْبَة الحَمْدِ – بْنِ هاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنافِ – واسمه المغيرة – بْنِ قُصَيِّ – ويُسمَّى زَيْداً – بْنِ كِلاَبِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْياسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنانَ.

فهذا القدر المتَّفق عليه من نسبه الشريف صلَّى الله عليه وسلَّم تفصيلاً، أَمّا ما وراء ذلك فَمُختلَفٌ فيه، لا يُعتَمدُ عليه في شيءٍ.

هذا وممّا لا يخفى أنَّ عدنان من ولد إسماعيلَ نبيِّ الله ابن إبراهيمَ خليل الله عليهما الصَّلاة والسَّلام، وأن الله عزَّ وجلَّ قد اختاره من أزكى القبائل وأَفضَل البطون وأطهر الأَصلاب، فما تسلَّل شيءٌ من أَدران الجاهليَّة إلى شيءٍ من نسبه صلَّى الله عليه وسلَّم.

روى مسلمٌ[1] بسنَدِه عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّه قالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْماعيلَ، واصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنانَةَ، واصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَني هاشِمٍ، واصْطَفاني مِنْ بَني هاشِمٍ».

وروى الترمذي أَنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قام عَلَى الْمِنْبَرِ فَقالَ: « مَنْ أَنا؟ فَقالوا: أَنْتَ رسولُ اللهِ عَلَيْكَ السَّلامُ، قالَ: أَنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَني في خَيْرِهِمْ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَني في خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ

[1] في الفضائل ، باب فضْلِ نسب النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم وتسليم الحجر عليه قبل النُّبوَّة (2276)

جَعَلَهُمْ قَبائِلَ فَجَعَلَني في خَيْرِهِمْ قَبيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيوتاً فَجَعَلَني في خَيْرِهِمْ بَيْتاً وَخَيْرِهِمْ نَفْساً»[1].

ثانياً – ولادته صلَّى الله عليه وسلَّم:

كان لعبد المطلب – وهوَ سيد قومه – عشرة أبناء، وَكانَ عبد الله واسطة العقد فيهم[2]، زوَّجه أبوه من (آمنة) بنت وهب – سيد بني زُهْرة – وهي يومئذ أَفضَل امرأةٍ في قريشٍ نسباً وموضِعاً[3].

و لم يلبثْ عبدُ اللهِ أنْ ماتَ، وكانَ قافِلاً من الشّام، مرض في طريق عودته، ولَمّا وصل إلى يثرب – مدينة أَخواله بني عديِّ بن النَّجار– مات هناك في شبابه.

وكانت آمنةُ زوجُه حاملٌ برسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد رأَت مِنَ الآثارِ والدَّلائل ما دلَّ أنَّ لابنِها هذا شأنٌ.

ولِد رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول على ما اشتهر في مصادر السّيرةِ، عام الفيل سنة (750) ميلادية.

ولَمّا وضعته أمُّه أَرسلَت على جدِّه عبدِ المطَّلب أنَّه قد وُلِد لك غلامٌ، فأَتاهُ فنظرَ إليهِ وحمَله، ودخل به الكعبة، وقام يدعو الله ويحمده، وسمّاه (محمَّداً) وَكانَ هذا الاسم غريباً آنذاك.

هذا وقد رافق ولادته عليه الصَّلاة والسَّلام بعض الحوادث الغريبة، فقد ذكرت كُتبُ السّيرة النَّبويَّة وبعض مصنَّفات الحديث حوادث خارقة للعادة، تثير للانتباه

---

[1] الترمذي في المناقب، باب فضْلِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم (3608) وقال: هَذا حَديثٌ حَسَنٌ.

[2] سيرة ابن هشامٍ: (108/1).

[3] المرجع السابق: (110/1).

منها ارتجاس إيوان كسرى، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، وغاضت بحيرة ساوا، وخمدت نيران فارس، التي كانوا يعبدونها و لم تخمد منذ ألف عام[1].

ثالثاً – رضاعته صلَّى الله عليه وسلَّم:

أرضعتُه صلَّى الله عليه وسلَّم في أيامِه الأوْلى (ثويبية) جاريةٌ لعمِّه أَبي لَهبٍ.

ثم التمَس عبدُ الْمطَّلب لِحفيدِه اليتيم مُرضِعاً منَ البادية – على عادةِ العربِ آنَذاك – فقَدْ كانوا يؤْثِرون البادية لرَضاعَة أَطفالِهم ونشأَتِهم الأوْلى، لِما في هواءِ البادية من النَّقاءِ، وفي أَخلاقِ أَهلِها من السَّلامة والاعتِدال.

وعرَض رسولُ اللهِ الطِّفل على جميعِ المُرضِعات فزهِدْن فيه، ليُتْمَّه وقلَّة ذات اليد عندَ أمِّه وجدِّهِ.

وَكانَ في المُرضِعات امرأةٌ من بني سعدِ بن بكرٍ يُقالُ لها: حَليمةُ بنتُ أبي ذؤَيب.

وكانت قد خرجت من بلدِها تلتَمِس الرُّضعاء، وَكانَ العام عامَ جدبٍ، وَكانَ أَهلُها في ضيْق شديدٍ، فانصرفَت عنه هيَ الأُخْرى في أوَّل الأَمرِ، ولكنَّها عادَت إليهِ عندَما خشيَت أنْ تعودَ منْ دونِ شيءٍ، فأخذَته وذهبتْ به إلى رحلِها، فما هوَ إلاَّ أنْ صار محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم في منْزِلها واستكانَ إلى حجرِها وثَديها، حتى عادت المنازلُ من حولِ خبائها مُمْرِعةً خضراء، فكانت أَغنامُها تروحُ منها عائدة إلى الدّار شِباعاً ممتلئة الضَّرْعِ، وَكانَ يقولُ لها مَنْ حَوْلها: لقد جئتِ يا حليمةُ بنَسمةٍ مُباركةٍ!.. وهذا يدلُّ على علوِّ شأنِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ورفعة مرتبته عندَ ربِّه منذ أَنْ كانَ طفلاً رَضيعاً.

---

[1] ينظر على سبيل المثال: دلائل النبوة للبيهقي: (120/1) ومابعدها، السّيرة النَّبويَّة للإمام ابن كثير: (215/1).

وظلَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم الطِّفلُ عندها سنتين، وَكانَ يشبُّ شباباً لا يشبُّ الغلمانُ مثله، فلمّا فصلَتْهُ عادَت بهِ إلى أمِّه، ولكنَّها طلبت من أُمِّه أَنْ تتركَه عندَها مدَّة أُخرى، فردَّته إليْها[1].

حادثة شقِّ الصَّدْر:

وقد حصلت أثناء وجوده صلَّى الله عليه وسلَّم في بادية بني سعد حادثة (شق الصدر) التي رويَت بطُرقٍ متعدِّدَةٍ كلُّها صحيحٌ، وعَنْ كثيرٍ مِنَ الصَّحابَةِ، منهُم أَنَسُ بنُ مالِكٍ رضي الله عنه فيما يَرويهِ مُسلِمٌ في (صَحيحِهِ): «أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَتاهُ جبْريلُ صلَّى الله عليه وسلَّم وَهوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقالَ: هَذا حَظُّ الشَّيْطانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعادَهُ في مَكانِهِ، وَجاءَ الْغِلْمانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ – يَعْنِي: ظِئْرَهُ[2] – فَقالوا: إِنَّ مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ، فاسْتَقْبَلوهُ وَهوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ» قالَ أَنَسٌ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ في صَدْرِهِ»[3]، ثم أُعيد بعدها إلى أمه وقد تمّ له من العمر خمس سنوات.

وفاة أمه آمنة وجدّه عبد المطّلب، وكفالة عمِّه أبي طالبٍ:

لّما تمَّ لهُ صلَّى الله عليه وسلَّم من العمرِ ستَّ سنين، خرجت به أمّه إلى مدينة يثرب، تزيره خؤولة جدّه فيها، وتزور قبر والده عبد الله بن عبد المطّلب، وفي طريق

---

[1] انظر قصَّة استرضاعه صلَّى الله عليه وسلَّم في سيررة ابن هشام: (1/162-163).

[2] الظئر: المرضعة.

[3] مسلم في الإيمان، بابُ الإِسْراءِ برسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إِلَى السَّماواتِ، وَفَرْضِ الصَّلَواتِ (162)، وثبَتَ في الصَّحيحِ تَكْرارُ حادِثَةِ شَقِّ صَدْرِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَكثَرَ مِنْ مرَّةٍ.

عودتها إلى مكّة أدركتها المنية فتوفيت بالأبواء مكان بين مكة والمدينة، وعادت به أمُّ أيمن بركة الحبشية حاضنته إلى مكة، وسلَّمته إلى جدّه عبد المطلب، فكان مع جدِّه، وَكانَ به حفياً رحيماً ملاطِفاً.

ولَمّا بلغ صلَّى الله عليه وسلَّم ثماني سنين، مات جدُّه عبد المطلب فاكتمل معنى اليتم في حقِّه، فإنّه صلَّى الله عليه وسلَّم لم ير أباه، ولم ينعم بعطفه وحنوِّه، فكان الشّعور بفقده شعوراً عقليّاً تقليدياً، وأمّا الشُّعور بفقد عبد المطَّلب فقَدْ كانَ شُعوراً حسّياً.

لقد أَرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أن ينشأ رسولُه يتيماً، تتوَلاه عنايةُ الله وحدَها بعيداً عن الذِّراع التي تُمعن في تدليلِه، والمال الذي يزيدُ في تنعيمه، كي لا تميل به نفسُه إلى مجدِ المالِ والجاه، وحتَّى لا يتأثَّر بما حوله من مظاهرِ الصَّدارَة والزَّعامة، فتلتبس على النّاسِ قداسةُ النُّبوَّة بجاه الدُّنيا، وحتَّى لا يحسبوه يصطَنِع الأوَّل ابتغاء الوصول إلى الثّاني[1].

كفالة عمِّه أبي طالب وقصة بحيرى الراهب:

كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بعد عبد المطَّلب مع عمِّه أبي طالب، وهوَ أخو عبد الله الشَّقيق من أبٍ وأمٍّ، وَكانَ عبد المطَّلب يوصيه به فكان إليهِ ومعه، وَكانَ رفيقاً شديد الرِّفق به أكثر من أولاده عليّ، وجعفر، وعقيل.

لَمّا تمَّ له صلَّى الله عليه وسلَّم من العمر اثنتا عشرة سنة، سافر عمُّه أبو طالبٍ إلى الشّام في ركبٍ للتِّجارة، فأخذه معه، ولَمّا نزل الرَّكْب (بصرى) مرّوا على راهبٍ هناك يُقال له (بَحيرا) وَكانَ عليماً بالإنجيلِ، خبيراً بشؤون النَّصرانيَّة، وهناك أَبْصـــرَ

[1] فقه السّيرة (46).

بَحيْرا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فجعل يتأمَّلُه ويُكلِّمه، ثم التفت إلى أبي طالبٍ فَقالَ له: ما هذا الغلام منك؟

فَقالَ: ابني – وَكانَ أبو طالب يدعوه بابنه لشدَّة محبَّته له وشفقَتِه عليه –.

فَقالَ له بَحيْرا: ما هو بابنك ، وما ينبغي أَنْ يَكونَ أبو هذا الغلام حيّاً.

فَقالَ: هو ابن أخي.

قال: فما فعل أبوه؟

قال: مات وأمُّه حُبْلى به.

قال بَحيْرا: صَدَقْت، فارجع به إلى بلدِه واحذر عليه يهود، فو الله لئن رأَوْه هنا ليُبلغنَّه شرّاً، فإنَّه كائنٌ لابن أَخيك هذا شأْنٌ عظيمٌ. فأسرع به أبو طالبٍ عائداً إلى مكَّة[1].

هذا وقد استغلَّ المستشرق الفرنسي (**Carra De vaux**) فألَّف كتاباً أسماه (مؤلِّف القرآن) قرَّر فيه أنَّ ذلك اللِّقاء العابر بين الطِّفل محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام

---

[1] باختصار عن سيرة ابن هشام: (180/1) ورواه الطَّبري في تاريخه: (287/2)، ورواه البيهقيُّ في (سننه) وأبو نُعيمٍ في (الحلية). ويوجد بين هذه الرِّوايات بعض الخلاف في التَّفصيل.
وانفرد الترمذي بروايته مطولاً على نحو آخر، ووهو معلول من حيث السند والمتن معاً، أَمّا سنده ففيه (عبد الرحمن بن غزوان) قال عنه في الميزان: له مناكير، ثم قال: أنكر ماله حديثه عن يونس بن أبي إسحاق، في سفر النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهوَ مراهق مع أبي طالب إلى الشام. وأَمّا متنه فقد قال ابن سيد النّاسِ: في متنه نكارة (راجع عيون الأثر: 43/1) . وقد ورد فيه ذكر بلال الحبشي، وبلال لم يَكنْ موجوداً في ذلك الحين قط .. هذا وأَمّا القدر المشترك من القصَّة فثابت بطرقٍ كثيرة لا يلحقها وهَن.

وبَحيرا الراهب الذي لم يدم أكثر من ساعةٍ من نهار دليلٌ عِلميٌّ على أنَّ ذلك الطِّفل قد تلقَّى من بَحيرا في ذلك اللِّقاء القرآن كلَّه، بكلِّ ما تضمَّنه من أحكامٍ وتعليق على أحداثٍ متفرِّقةٍ كلها وقع بعد ذلك اللِّقاء بما لا يقل عن ثلاثين عاماً، وبَحيرا جثَّة هامدةٌ في طوايا التُّراب.

إنَّ هذا لا يقوله عاقلٌ رُزق من سلامةِ العقل والإنصافِ ذرّة، فهل يُعقل أنَّ غلاماً لا يجاوز عمره اثني عشر عاماً تلقَّى من شيخٍ لا يعرف لغته – ولم يجلس إليهِ إلاَّ ساعة من نهارٍ – تلك العلوم والمعارف، وأخبار الأُمم الماضية، وغيوب المستقبل والحاضر المسائل الدقيقة والتفاصيل العميقة.

فهل يمكن أن تجد عَقلاً سليماً من لوثة المسِّ يصدِّقُ هذا الكلام[1]؟!

رحلتُه الأولى إلى الشّام وكَدحُه في سبيلِ الرِّزق

ثمَّ أخذ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يستقبلُ فترة الشَّباب الأوْلى من عمره فاتَّجه إلى السَّعي للرِّزْقِ وراحَ يشتغلُ برعي الأَغنامِ، قالَ عليه الصَّلاة والسَّلام: «ما بَعَثَ اللهُ نَبيّاً إلّا رَعَى الغَنَمَ»، فَقالَ أَصْحابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعاها عَلَى قَراريطَ لأَهْلِ مَكَّةَ»[2].

وفي رعي الغنم كسبٌ شريفٌ، وتربيةٌ نفسيَّة، وترويضٌ على العطفِ على الضُّعفاء، وسياسةٌ للأَوابدِ، واستنشاقٌ للهواءِ النَّقيِّ الصّافي، وتقويةٌ للجسم، واكتسابٌ لمعاني أَخلاقيَّةٍ ساميةٍ لِما فطر عليه الغنم من الإيثار، ولين العريكة.

---

[1] ينظر: فقه السّيرة (64)، والسّيرة النَّبويَّة للندوي: 166.

[2] البخاري في الإجارةِ، بابُ رَعْيِ الغَنَمِ عَلَى قَراريطَ (2262).

وقد اتَّصف عليه الصَّلاة والسَّلام في شبابه بصفات وأخلاق غاية في الكمال، فكان صلَّى الله عليه وسلَّم يأكل من كسب يده، ويقنع بالقوت، وَكانَ إلى جانب ذلك وصولاً للرّحم، حاملاً للكلِّ، عوناً للآخرين على المكرمات، وفكان أحسن النّاسِ خُلُقاً، وأشدّهم حياءً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم عن الفُحش والبذاءة، حتى عُرِف بين قومه بـــ(الأَمين).

وقد عصمَه الله تعالى منْ مَباذلِ الجاهليَّة وترَّهاتها، فلم يقعْ في شيءٍ منْ مَظاهِر لَهْوِ الشَّباب وعبثهم.

قالَ عليه الصَّلاة والسَّلام فيما يرويه عن نفسِّه: «ما هَمَمْتُ بِقَبيحٍ مِمّا يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ إلاَّ مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ كِلْتاهُما عَصَمَني اللهُ مِنْهُما.

قُلْتُ لَيْلَةً لِفتًى كانَ مَعي مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ في غَنَمٍ لأَهْلِنا نَرْعاها: أَبْصِرْ لي غَنَمي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَما يَسْمُرُ الفِتْيانُ. قالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ، فَلَمّا جِئْتُ أَدْنى دارٍ مِنْ دورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غِناءً، وَصَوْتَ دُفوفٍ، وَمَزاميرَ.

قُلْتُ: ما هَذا؟ قالوا: فُلانٌ تَزَوَّجَ فُلانَةَ - لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ - فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الغِناءِ، وَبِذَلِكَ الصَّوْتِ حَتَّى غَلَبَتْني عَيْني، فَنمْتُ فَما أَيْقَظَني إلا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صاحِبِي، فَقالَ: ما فَعَلْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقيلَ لي: مِثْلُ ما قيلَ لي، فَسَمِعْتُ كَما سَمِعْتُ، حَتَّى غَلَبَتْني عَيْني، فَما أَيْقَظَني إلاَّ مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صاحِبِي، فَقالَ لي: ما فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: ما فَعَلْتُ شَيْئاً».

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «فَواللهِ، ما هَمَمْتُ بَعْدَهُما بِسوءٍ مِمّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ، حَتَّى أَكْرَمَنِي اللهُ بِنُبوتِهِ»[1].

إن هذا الحديث ليؤكد أن النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كانَ يتمتَّعُ بخصائص البشريَّة كلها، وكانَ يجدُ في نفسِه ما يجِدهُ كلُّ شابٍّ من مُختلَفِ الميولات الفطريَّة التي اقتَضَتْ حِكمةُ اللهِ أن يجبل النّاسَ عليها. فكان يحسُّ بمعنى السَّمر واللهو ، ويشعر بما في ذلك من متعةٍ، وتحدِّثه نفسُه لو تمتَّع بشيءٍ من ذلك على نحو ما يفعلُ الآخرون.

ولكنَّ العناية الإلهية عصمته من الوقوع فيما ينغمس فيه قوم من أدران الجاهليَّة ومفاسدها.

تجارته بمال خديجة وزواجه منها

كانت خديجةُ بنتُ خويلد امرأةً تاجرةً ذات شرفٍ ومالٍ، تستأجِر الرِّجال في مالها وتضاربهم إيّاه بشيءٍ تجعلُه لهم منه، فلمّا شاع في قريش صدق رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وعظم أمانته وكرم أخلاقه، أرسلت إليهِ تعرضُ عليه أن يخرج في مالها إلى الشّام تاجراً على أنْ تُعطيَه أَفضَلَ ما كانت تُعطي غيره، فقبِل منها محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام هذا العرض، ورحل إلى الشّام عاملاً في مالِها، ومعه غلامُها ميْسَرة. فكان التَّوفيقُ حليفَهُ، وعاد إلى خديجة بأَرباحٍ مُضاعفةٍ، لم تعهدْ نَظيراً لها منْ قبل، فأدَّى مالها عليه في أَمانةٍ تامَّةٍ ونُبلٍ عظيمٍ، ورأى ميسَرة من خَصائصِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعظيمِ أَخلاقِه في تلك الرِّحلة ما ملأَ قلبَه، إعْجاباً ودهشَةً، وروى ذلك لخديجة.

---

[1] رواه ابن حبان في صحيحه (6272) الحاكم في المستدرك على الصحيحين (7619) من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

وأُعجِبت خديجةُ بعظيم أَمانتِه، وعرضَت نفسَها عليه زوجةً بواسطَة صديقتها (نفيسة بنت مُنيَّة) ، وكانت قد رفضَت طلبَ كثيرٍ من أَشرافِ قريشٍ، ومنهم حمزة عمُّ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، فوافَق النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام على ذلك، وكلَّم أعمامَه في الأَمرِ، فخطَبوها لهُ منْ عمِّها عمرِو بنِ أسَدٍ، وتزوَّجها عليه الصَّلاة والسَّلام وقد تمّ له من العمر خمسةٌ وعشرون عاماً ولها من العمر أَربَعون.

وقَدْ كانَت خديجةُ تزوَّجت قبل زواجِها من رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم برجلين:

الأول منهما (عتيقُ بنُ عائذٍ التَّميمي).

والثاني أَبو هالَةَ التَّميميُّ، واسمُه (هنْدُ بنُ زُرارةَ)[1].

وقَدْ كانَ له صلَّى الله عليه وسلَّم منها كلّ أَوْلادِه، إلاَّ إبْراهيمَ.

وأولاده عليه الصَّلاة والسَّلام من خديجة هم على التَّرتيب: القاسم – وبه كانَ يكنى – ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله الملقب بـ(الطَّيب والطّاهر)، ومات القاسم والطَّيب صغاراً، وأمّا البنات فأدركن الإِسْلام وأسلمنَ وهاجرن، إلاَّ أَنَّهنَّ توفين في حياته صلَّى الله عليه وسلَّم، سوى فاطمة رضي الله عنها فقد توفيت بعده بستَّة أشهرٍ.

لقد ثبت في الصحيحين عن النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن خديجة خير نساء زمانها على الإطلاق.

---

[1] رواه ابن سيد النّاسِ في (عيون الأثر) وابن حجر في (الإصابة)، وغيرهما. وقد جرى خلاف في الأول منهما. والذي رجَّحه ابن سيد النّاسِ ورواه قتادة وابن إسحاق أن الأول منهما هو (عتيق بن عائذ) والثاني (هند بن زرارة).

فقَدْ رَوى البُخاريُّ ومُسْلِمٌ[1] أَنَّ عَلِيّاً سَمِعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: «خَيْرُ نسائِها مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ، وَخَيْرُ نسائِها خَديجَةُ بِنْتُ خويْلِدٍ»[2].

وَرَوى البُخاريُّ ومُسْلِمٌ[3] أَيضاً عَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّها قالَتْ: ما غِرْتُ عَلَى نساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إِلاَّ عَلَى خَديجَةَ، وَإِنّي لَمْ أُدْرِكْها، قالَتْ: وَكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إِذا ذَبَحَ الشّاةَ فَيَقولُ: «أَرْسِلوا بِها إِلَى أَصْدِقاءِ خَديجَةَ»، قالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْماً، فَقُلْتُ: خَديجَةَ! فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «إِنّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّها».

وَرَوى أَحمدُ والطَّبرانيُّ[4] مِنْ طَريقِ مَسْروقٍ عَنْ عائشَةَ رضي الله عنها قالَتْ: «كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَكادُ يَخْرجُ مِنَ البَيْتِ حتَّى يَذْكُرَ خَديجَةَ، فَيُحْسِنُ الثَّناءَ عَلَيْها، فَذَكَرَها يَوْماً مِنَ الأَيّامِ، فَأَخَذَتْني الغَيْرَةُ، فَقُلْتُ: هَلْ كانَتْ إِلاَّ عَجوْزاً قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْراً مِنْها؟ فَغَضِبَ، ثُمَّ قالَ: «لا واللهِ ما أَبْدَلَني اللهُ خَيْراً مِنْها:

---

[1] البخاري في المناقب، باب تزويج النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم خديجة وفضلها (3815) ومسلم في فضائل الصَّحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (2430).

[2] الضَّمير في نسائها عائدٌ – كما تدلُّ رواية مسلم – إلى السَّماء بالنسبة لمريم، وإلى الأرض بالنسبة لخديجة. وقال الطّيبي: الضَّمير الأوَّل راجع إلى الأُمَّة التي كانت فيها مريم، والثاني إلى هذه الأُمَّة. وانظر فتح الباري: (91/7).

[3] البخاري في المناقب، باب تزويج النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم خديجة وفضلها (2435) مسلم في فضائل الصَّحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (2435).

[4] اللَّفظ لأبي بكر الآجري في كتاب الشَّريعة، فضائل الحسن والحسين رضي الله عنهما، باب ذكر غضب النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم لخديجة رضي الله (1634).

آمَنَتْ إِذْ كَفَرَ النّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النّاسُ، وَواسَتْنِي بِمالِها إِذْ حَرَمَنِي النّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ مِنْها الوَلَدَ دوْنَ غَيْرِها مِنَ النِّساءِ».

بناء الكعبة

لقَدْ كانَ احترامُ الكعبةِ وتعظيمُها من بقايا مابقيَ مَحفوظاً من شِرْعَة إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السَّلامُ بيْن العرَب.

لَمّا بلغَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم خمساً وثلاثينَ سنةً اجتمَعت قريشٌ لإعادةِ بناءِ الكعبةِ، إذْ كانت قد تعرَّضتْ لعَوادي أَوْهنَت بُنيانَها وصدَّعت جُدرانها، كانَ آخرها سيلٌ أَصابها أدَّى إلى تصدُّع جدرانها، فقرَّرت قريشٌ هدمَها وتَجديدَ بنائها، فقام سادات مكة وكبرائها بالأَمر، وقد شاركَهم رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في عمليَّة البناءِ هذِه مشاركةً مباشرةً فعّالة، فكانَ ينقلُ الحِجارَة على كتِفه، ما بينها وبينه إلّا إزاره.

عن جابرِ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عَنْهُما، قالَ: لَمّا بُنيَتِ الكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وَعَبّاسٌ يَنْقُلاَنِ الحِجارَةَ، فَقالَ العَبّاسُ لِلنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: اجْعَلْ إِزارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ، فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ، وَطَمَحَتْ عَيْناهُ إِلَى السَّماءِ، فَقالَ: «أَرِني إِزاري» فَشَدَّهُ عَلَيْهِ[1].

وَلَمّا وصلوا إلى مكانِ الحجرِ الأسود فيها اختلفوا اختلافاً شديداً فيمن يكون له شرفُ وضْع الحجرِ الأَسودِ في مكانَه، وأَرادَت كلُّ قبيلةٍ أَنْ يَكونَ لَها هذا الشَّرف، واشتدَّ النِّزاعُ حتَّى تواعدوا للقِتال، وقرَّبت بنو عبدِ الدّار جفنةً مملوءةً دماً، وتعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدَّم في تلك الجفنة، ومكثت

[1] البخاري في الحجِّ، بابُ فَضْلِ مَكَّةَ وَبُنْيانِها (1582)

قريشٌ على ذلك أياماً، فكانَ لهُ صلَّى الله عليه وسلَّم أَثَرٌ كبيرٌ في حلِّ المشكلَة إذ اتَّفق – في آخر المطاف – زعماءُ القبائل – وهم مجتمعون عندَ الكعبة – على أن يُحكِّموا أولَ داخلٍ إليهم من بابِ بني شيبةَ، فكانَ قدر الله أَنْ يَكونَ أول داخلٍ هوَ محمَّد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمّا رأوه قالوا جميعاً: هذا الأَمين رضيناه.

فدعا رسول الله بثوبٍ كبيرٍ، وأخذ الحجر فوضعه فيه، ثم قال: لتأخذ كلُّ قبيلـــةٍ بناحيةٍ من الثَّوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا ذلك حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده في مكانه[1].

وَكانَ إِبراهيمُ عليهِ السَّلامُ قد بنى الكعبة مع ابنه إِسماعيلَ بأمر من المولى عزَّ وجلَّ[2] قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعيلُ، رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ الْعَليمُ﴾ [البقرة: 127]، وعنِ ابْنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما: «.. قالَ إِبْراهيمُ: يا إِسْماعيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَني بِأَمْرٍ، قالَ: فاصْنَعْ ما أَمَرَكَ رَبُّكَ، قالَ: وَتُعينُني؟ قالَ: وَأُعينُكَ، قالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَني أَنْ أَبْنِيَ ها هُنا بَيْتاً، وَأَشارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى ما

---

[1] سيرة ابن هشام: (1/192- 193).

[2] جاء في بعضِ الآثارِ والرِّواياتِ أنَّ أوَّل من بناها هو آدم عليه الصَّلاة والسَّلام، فقد روى البيهقيُّ في (دلائل النُّبوَّة) من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «بَعَثَ اللهُ عزّ وجلّ جِبْريلَ، عَلَيْهِ السَّلامُ، إِلَى آدَمَ وَحَوّاءَ، فَقالَ لَهُما: ابْنيا لي بناءً. فَخَطَّ لَهُما جِبْريلُ، عَلَيْهِ السَّلامُ، فَجَعَلَ آدَمُ يَحْفِرُ وَحَوّاءُ تَنْقِلُ حَتَّى أَصابَهُ الْماءُ، نوديَ مِنْ تَحْتِهِ: حَسْبُكَ يا آدَمُ. فَلَمّا بَنَياهُ أَوْحَى اللهُ، تَعالى، إِلَيْهِ: أَنْ يَطوفَ بِهِ، وَقيلَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ النّاسِ، وَهَذا أَوَّلُ بَيْتٍ. ثُمَّ تَناسَخَتِ الْقُرونُ حَتَّى حَجَّهُ نوحٌ، ثُمَّ تَناسَخَتِ الْقُرونُ حَتَّى رَفَعَ إِبْراهيمُ الْقَواعِدَ مِنْهُ». وفي سند هذا الحديث راوٍ ضعيف لا يحتجُّ به.

حَوْلَها، قالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعا القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْماعيلُ يَأْتي بِالحِجارَةِ وَإِبْراهيمُ يَبْني ...»[1] .

جعل إبراهيمُ عليه الصَّلاة والسَّلام طولَ بناء الكعبة في السَّماء سبعةَ أو تسعةَ أذرُعٍ، وطولها في الأرضِ ثلاثين ذراعاً، وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعاً، وكانت بغير سقف[2].

وأما عندَما أعادت قريش بنائها قبل الإسْلام جعلوا طولها في السَّماء ثماني عشرةَ ذِراعاً، ونقصوا من طولها في الأرض ستةَ أذرُعٍ وجُزْءاً من الذِّراعِ تركوها في الحُجْرِ[3]، روتْهُ عائشةُ رضي الله عنها عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قوله لها: «يا عائِشَةُ، لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَديثُ عَهْدٍ بجاهِلِيَّةٍ لأَمَرْتُ بالْبَيْتِ، فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فيهِ ما أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بابَيْنِ، باباً شَرْقِيّاً، وَباباً غَرْبِيّاً، فَبَلَغْتُ بِهِ أَساسَ إِبْراهيمَ»[4].

هذا ونرى مِنْ خِلالِ مشاركته صلَّى الله عليه وسلَّم في البناء أولاً ومن ثم حكمته في حل النزاع الذي استحكم بين بشأن الحجر الأسود مدى سمو منزلة محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام في نفوس قومه فقَدْ كانَ مُلقَّباً عندهم - كما رأيت - بـ(الأَمين)،

---

[1] البخاري في أَحاديث الأنبياء، بابُ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿واتَّخَذَ اللهُ إِبْراهيمَ خَليلاً﴾ [النساء: 125] رقم (3364).

[2] انظر: عيون الأثر: (53/1)، إعلام السّاجد للزركشي: (46).

[3] روى ذلك البخاريُّ في الحجِّ، بابُ فضْلِ مكّة. وينظر إعلام السَّاجد للزَّركشي: (46).

[4] البخاري، في الحج، بابُ فَضْلِ مَكَّةَ وَبُنْيانِها (1586) ومسلم في الحجِ، بابُ نَقْضِ الْكَعْبَةِ وَبِنائِها (1333)، واللَّفظ للبخاري.

وَكانَ محبوباً لديهم جميعاً، وكانوا لا يرتابون في صدقه إذا حدَّث، وفي كريم أخلاقه إذا عومل، ولعلَّ ذلك كله يتجلَّى بأَجلى مظاهره عندَما اغتبط الفرقاء المُتخاصمون في تحكيمه دون أنْ يشذَّ في ذلك منهم أحدٌ، وتصايحوا جميعاً: (هذا هـــو الأَمـــين، رضينا به)[1].

اختلاؤه في غار حراء

وَلَمّا أخذت سنُّه تدنو نحو الأَربعين، نشأَ لديه حبٌّ للعزلة بين الحيْنِ والآخـــر، وحُبِّبَ إليهِ الاختلاء في غار حراء – وهوَ غارٌ صغيرٌ يقع في قمَّة جَبلِ النّورِ الواقع في الشَّمال الغربي لمكَّةَ – فكان يخلو فيه، ويتعبَّد الله ويدعوه على الطَّريقةِ الإبراهيمية، يذكرُ الله بالفكْرِ والتَّأمُّلِ كثيراً من وقته.

وَكانَ ينقطع عن النّاس في ذلك الغار اللَّيالي ذوات العدد، فتارةً عشرة، وتـــارةً أكثر من ذلك، ثم يعودُ إلى بيته فلا يكادُ يمكثُ فيه قليلاً حتَّى يتزوَّد من جديدٍ لخلوةٍ أُخرى ويعود الكرَّة إلى غار حراء.

وهكذا .. إلى أن جاءه الوحي وهوَ في إحدى خلواته تلك.

بدء الوحي

وصفَتْ لنا السَّيدةِ عائِشةَ رضي الله عنها كيفيَةَ بَدْءِ الوَحي بقَوْلِها[2]: أَوَّلُ مـــا بُدِئَ بِهِ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصّالِحَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لاَ يَرَى رُؤْيا إلّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكانَ يَخْلو بغارِ حِـــراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ – وَهو التَّعَبُّدُ – اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِـــهِ، وَيَتَـــزَوَّدُ

---

[1] ينظر فقه السّيرة (55).

[2] البخاري، باب كَيْفَ كانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ رقم (3)

لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِها، حَتَّى جاءَهُ الحَقُّ وَهو في غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ فَقالَ: اقْرَأْ، قالَ: «ما أَنا بِقارِئٍ»، قالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أَنا بِقارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أَنا بِقارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق: 2]، فَرَجَعَ بِها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خوَيْلِدٍ رَضيَ اللهُ عَنْها، فَقالَ: «زَمِّلوني زَمِّلوني» فَزَمَّلوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَها الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشيتُ عَلَى نَفْسي» فَقالَتْ خَدِيجَةُ: كَلّا واللهِ ما يُخْزيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدومَ، وَتَقْري الضَّيْفَ، وَتُعينُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِّ، فانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وَكانَ يَكْتُبُ الكِتابَ العِبْرانيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجيلِ بِالعِبْرانيَّةِ ما شاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكانَ شَيْخاً كَبيراً قَدْ عَميَ، فَقالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخيكَ، فَقالَ لَهُ وَرَقَةُ: يا ابْنَ أَخي ماذا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم خَبَرَ ما رَأَى، فَقالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذا النّاموسُ – أَي جبريلَ أَو الوَحي – الَّذي نَزَّلَ اللهُ عَلَى موسَى، يا لَيْتَني فيها جَذَعاً – شابّاً قويّاً –، لَيْتَني أَكونُ حَيّاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أَوَ مُخْرِجيَّ هُمْ»، قالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إِلّا عودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْني يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ توفّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ.

وتعدَّدت أَقوالُ أَهلِ السّيَرِ في الزَّمنِ الذي فتَرَ فيه الوحيُ، فقيلَ: ثلاثُ سَنواتٍ، وقيلَ: أَقلُّ مِنْ ذلِكَ، ويَبدو أنَّ الرّاجِحَ ما رَواهُ البَيهقيُّ مِنْ أَنَّ المدَّةَ كانَت ستَّة أَشْهرٍ[1].

ثم رَوى البُخاريُّ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي اللهُ عنهما قالَ – وَهو يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ – فَقالَ في حَديثِهِ: «بَيْنا أَنا أَمْشي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّماءِ، فَرَفَعْتُ بَصَري، فَإِذا المَلَكُ الَّذي جاءَني بِحِراءٍ جالِسٌ عَلَى كُرْسيٍّ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلوني زَمِّلوني " فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى: ﴿يا أَيُّها المُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: 2] إِلَى قَوْلِهِ ﴿والرُّجْزَ فاهْجُرْ﴾ [المدثر: 5]. فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتابَعَ».

إنَّ ما جاء في وصف الوحي والحالة التي انتابت النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَثناء مخاطبتع له تُحدِّد لنا بدقَّةٍ أنَّ الوحي إِنَّما هو **حقيقةٌ خارجة عن كيان محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم لا يملك جذبها إليهِ ولا دفعها عنه ، تمثَّلت في أخبار عن الله بواسطة جبريل.** قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأَمينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكونَ مِنَ الْمُنْذِرينَ * بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ﴾ [الشُّعراء: 193 – 195]

ثم إن استمرار الوحي الذي توالى بعد ذلك يحمل الدلالة ذاتها على حقيقة الوحي ويؤكِّد أَنَّه لا يمكن أَنْ يَكونَ ظاهِرةً نفسيَّة تمثَّلت بالكشفِ أو الإشراق الروحي، كما يدعي بعض المشكِّكين.

---

[1] راجع فتح الباري: 21/1.

وإن هذِه الآية جاءت ردّاً لأيٍّ من الأوهام التي تصوّر الوحي ظـــاهِرةً نفســـيَّةً داخليَّةً وتنبِّه النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذاته إلى هذة الحقيقة التي هي مستقلَّة عن ذاته وكيانه، وآتية إليهِ من لدن رب العالمين جلَّ جلاله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ. لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرينَ﴾ [يونس: 94] .

ولذا رويَ أَنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ بَعْدَ نُزولِ هذِه الآية: «لا أَشكُّ ولا أَسْأَلُ»[1].

[1] أخرجه عبد الرزاق في مصنَّفه عن قتادة مرسلاً (125/6) رقم (10211).

من البعثة إلى الهجرة

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

استمرَّت هذِه المرحلة من الدَّعوَةِ ثلاثةَ عشرَ عاماً، وهي تنقسِم إِلى فترتين:

الفترة الأولى : الدَّعوَةُ سرّاً.

والفترة الثانية: الدَّعوَةُ جهراً.

وسنسرد فيما يلي أبرز معالم السّيرة النُّبويَّة في كلٍّ من هاتين الفترتين.

أولاً – الدّعوة سرّاً

استجابَ النّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لأَمْرِ الله، فأخذَ يَدعو إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه من دون ندٍّ ولا شريكٍ، وإلى نَبْذِ سائرِ الأَوثانِ والأَصنامِ، ولكنَّه كانَ يَدْعو إلى ذلك سرّاً، حَذَراً مِنْ وَقعِ المفاجأةِ على قريشٍ التي كانت شديدةَ التَّعصُّبِ لوَثنيَّتِها وشِرْكِها، و لم يتجاوز بالدَّعوة في هذِه الفترة حدود الأقربين ومن في حكمهم ممن يطمئنُّ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى جانبهم.

وَكانَ في أوائلِ منْ دخلَ الإِسْلامِ استجابةً له علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام كلٌّ مِنْ:

– السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها: زوجته صلَّى الله عليه وسلَّم.

– علي بن أبي طالب: ابن عمِّه الذي كانَ يعيش في كنفه.

– زيد بن حارثة: مولاه علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام ومتبنّاه.

– أبي بكر الصديق ابنُ أبي قحافة، وعثمان بن عفان، والزّبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وخباب بن الأرت، وعمّار بن ياسر .. وآخرين، رضي الله عنهم جميعاً.

وَكانَ هؤلاء وأمثالهم يلتقون مع النّبي صلَّى الله عليه وسلَّم سرّا، وَكانَ أحدهم إذا أراد القيام بعبادةٍ من العبادات (قراءة قرآن ، أو صلاة ...) استخفى في أحدِ شِعابِ مكَّة كي لا يعلم بأمرِه أحدٌ. ثمَّ لما زاد عددهم على الثلاثين – ما بين رجلٍ وامرأةٍ – اختار لهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم دارَ أحدِهم، وهوَ (الأرقم بن أبي الأرقم)، ليلتقي معهم فيها مبلِّغاً ومرشِداً ومعلِّماً، وكانت حصيلة الدَّعوة في هذِه المدَّة ما

يقارب أربعين رجلاً وامرأةً دخلوا في الإسْلام، وَكانَ جلُّهم من الفقراء والأَرقاء وممن لا شأن له بقريش[1].

وكانت جملة المدة التي نهض النَّبيّ علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام بالدَّعوة إلى الله فيها سرّاً ثلاث سنوات. وفي اتِّباع السِّرِيَّة في هذِه ابتداء الدَّعوة تعليمٌ للمتصدين للدَّعوة بعده صلَّى الله عليه وسلَّم وإرشادٌ للدُّعاة إلى مشروعية الأخذ بالحيطة، والتَّمسك بالأسباب الظّاهِرةِ، على أن لا يتغلب ذلك كله على الاعتماد والاتّكال على الله وحده، إذ لو جهر بها من أوَّل يوم غير مبالٍ بالمزالق، ومخاطر الطَّريق، وبما تقتضيه الحيطةُ في الأَمرِ، لثبتَ ذلك حُكماً تشريعياً في حقِّ سائرِ النّاس منْ بعدِه. ولوجب عليهم أن يغامروا في طريقِ الإرشادِ والدَّعوةِ إلى الله دونَ إقامةِ وزنٍ للأسبابِ المادّيَّة الظّاهِرةِ.

وعليه فإنَّه يجوز لأَصحابِ الدَّعوة في كلِّ عصرٍ أنْ يستعملوا المرونة في كيفية الدَّعوة – من حيث الجهرُ والإسرارُ، ومن حيث اللّين والشِّدَّة – حسبما يقتضيه الظَّرف والحال، وهي مرونةٌ قدَّرتها الشَّريعة استدِلالاً بواقع سيرتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، على أَنْ يَكونَ النَّظر في كلِّ ذلك إلى مصلحةِ المسلمين ومصلحةِ الدَّعوةِ الإسْلاميَّة.

ثانياً – الجهر بالدَّعوة

قالَ ابْنُ إسْحاقَ[2]: «ثُمَّ دَخَلَ النّاسُ في الإسْلامِ أَرْسالاً مِنْ الرِّجالِ والنِّساءِ، حَتَّى فَشا ذِكْرُ الإسْلامِ بمَكَّةَ، وَتُحَدِّثَ بِهِ. ثُمَّ إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ رسولَهُ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنْ يَصْدَعَ بِما جاءَهُ مِنْهُ، وَأَنْ يُباديَ النّاسَ بِأَمْرِهِ، وَأَنْ يَدْعو إلَيْهِ.

---

[1] انظر سيرة ابن هشام: (1/249 – 261).

[2] سيرة ابن هشام: (1/262)

وَكانَ بَيْنَ ما أَخْفَى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَمْرَهُ واسْتَتَرَ بِهِ إِلَى أَنْ أَمَرَهُ اللهُ تَعالَى بِإِظْهارِ دينِهِ ثَلاثَ سِنِينَ – فيما بَلَغَني – مِنْ مَبْعَثِهِ، ثُمَّ قالَ اللهُ تَعالَى لَهُ: ﴿فاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94]. وَقالَ تَعالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * واخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعراء: 214 – 215]».

وحينئذٍ بدأَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بتنفيذِ أمرِ ربِّه. فصعِد على الصَّفا وجعلَ ينادي: «يا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يا بَنِي فِهْرٍ، يا بَنِي لؤي يا بَنِي...»، حتَّى اجتمَعوا إليهِ، وجعلَ الذي لم يستطعْ أنْ يخرجَ يرسِل رسولاً لينظر ما الخبر؟ فَقالَ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أَرَأَيْتُم: لَو أَخْبَرتكُم أنَّ خيلاً بالوادي تُريد أَنْ تُغيرَ عليكم، أَكُنْتُم مُصدقي؟ قالوا: ما جرَّبنا عَلَيْك كذِباً، قالَ: «فإنّي نَذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديدٍ، واللهِ لتَموتُنَّ كما تَنامونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كما تَسْتَيْقِظونَ، وَلَتُحاسَبُنَّ بما تَعْمَلونَ، وَلَتُجْزَوْنَ بالإِحْسانِ إِحْساناَ وبالسَّوءِ سوءاَ، وإِنَّها لَجَنَّةٌ أَبَداً أَو لَنارٌ أَبَداَ» فَقالَ لَه أَبو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ سائِرَ اليَوْمِ، أَما دَعَوْتَنا إِلا لِهَذا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1].

وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، قالَ: لَمّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعراء: 214]، دَعا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قُرَيْشاً، فاجْتَمَعوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقالَ: «يا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ، يا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ، يا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ، يا بَنِي عَبْدِ مَنافٍ، أَنْقِذوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ، يا بَنِي هاشِمٍ، أَنْقِذوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ، يا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،

أَنْقِذوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النّارِ، يا فاطِمَةُ، أَنْقِذي نَفْسَكِ مِنَ النّارِ، فَإِنّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّها بِبَلالِها»[1].

وَكانَ ردُّ الفعلِ من قريشٍ أَمامَ جهرِه بالدَّعوة، أنْ أَدبَروا عنه وتنكَّروا لدعوتِه معتذرين بأنَّهم لا يستطيعون أنْ يتركوا الدّين الذي ورِثوه عن آبائهم وأصبحَ واحداً من تقاليدِ حياتهم.

وحينئذٍ نبَّههم الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ضرورةِ تحريرِ أَفكارِهم وعقولِهم من عبودية الاتِّباع والتَّقليد، واستعمال العقل والمنطق، موضِّحاً لهم أنَّ آلهتهم التي يعكفون على عبادتِها لا تفيدُهم أو تضرُّهم شيئاً، وأنَّ توارُث آبائهم وأَجدادِهم لعبادتِها ليسَ عُذراً في اتِّباعهم بدونِ دافعٍ إلاَّ مجرَّد التَّقليد الأَعمى، قالَ ذلك كلَّه لهم بعدَ أنْ أَنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في حقِّهم: ﴿وَإِذا قيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسولِ، قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدونَ!؟﴾ [المائدة: 104].

وأخذَ صلَّى الله عليه وسلَّم يعيبُ على مشركي مكَّة آلهتهم، ويسفِّه عقولهم، بسبب حكمهم عليها بضرورة الاتِّباع والتَّقليد الأَعمى ولما جرّ اعتذارهم بأنَّهم لا يستطيعون أن يتركوا ما كانَ عليه آباؤهم وأَجدادهم، إلى وصفِ آبائهم بعدم

---

[1] أخرجه البخاري في الوصايا، بابٌ: هَلْ يَدْخُلُ النِّساءُ والوَلَدُ في الأَقارِبِ؟ (2753) ومسلم في الإيْمانِ، باب في قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ﴾ (204)، واللفظ لمسلمٍ. وقوله: (سأَبلُّها ببلاها) أي: سأصلها بصلتها.

العقل، أَعظموا الأَمر، وأَجمعوا خلافَه ومعاداته ..، إلاَّ قلَّة عصمَها الله تعالى منـــهم بالإِسلامِ، وإلاَّ عمَّه أَبا طالبٍ الذي حدَب عليه، ومنعَه، وقام دونه.

الإيذاء

ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشاً اشتَدَّتْ في مُعاداتِها لِرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وأَصْحابِهِ.

أمّا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فَقَدْ لاقى مِنْ إيْذائهِم أَنْواعاً كَثيْـــرَةً.

مِنْ ذَلِكَ: ما رَواهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العاصِ قالَ: «بَيْنا النَّبيُّ صلَّى الله عليـــه وسلَّم يُصَلّي في حِجْرِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَـــهُ في عُنُقِـــهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقاً شَديداً» فَأَقْبَلَ أَبو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقولَ رَبِّيَ اللهُ؟﴾ [غافر: 28]»[1].

ومنه ما روى عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: «بَيْنَما رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ساجِدٌ وَحَوْلَهُ ناسٌ مِنْ قُرَيْشٍ، إِذْ جاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبي مُعَيْطٍ بِسَلا جَـــزورٍ، فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ، فَجاءَتْ فاطِمَـــةُ فَأَخَذَتْهُ عَنْ ظَهْرِهِ، وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ»[2].

ومِنْهُ ما كانوا يواجِهونَهُ بِهِ مِنْ فُنونِ الهـــُزْءِ والغَمْزِ واللَّمْزِ كُلَّما مَشى بَيْنَهُم، أَو مَرَّ بِهِم في طُرُقاتِهِم أَو نَواديهِم.

---

[1] البخاري في مناقب الأنصار، باب ما لقي النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم من المشركين بمكة، (3856).

[2] البخاري في الوضوء، بابُ إِذا أُلْقِيَ عَلَى ظَهْرِ المُصَلّي قَذَرٌ أَوْ جيفَةٌ، لَمْ تَفْسُدْ عَلَيْهِ صَلاَتُهُ (240) ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم من أذى المشركين رقم (1794).

السَّلا: الجلدة التي يكون فيها ولد البهائم وهي كالمشيمة بالنِّسْبَة للآدمي. والجزور: المذبوح من الإبل.

ومِنْهُ ما رَواهُ الطَّبَريُّ وابْنُ إِسْحاقَ أَنَّ بَعْضَهُمْ عَمدَ إِلى قَبْضَةٍ مِنْ التُّرابِ فَنَثَرَها عَلى رأْسِهِ وَهوَ يَسيْـــرُ في بَعْضِ سكَكِ مِكَّةَ، وَعادَ إِلى بَيْتِهِ والتُّرابُ عَلى رأْسِـــهِ، فَقامَتْ إِلَيْهِ إِحْدى بَناتِهِ تَغْسِلُ التُّرابَ عَنْ رأْسِهِ وَهيَ تَبْكي، وَرسولُ اللهِ صـــلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ لَها: «لا تَبْكي يا بُنَيَّةِ، فَإِنَّ اللهَ مانِعٌ أَباكَ»[1].

وأَمّا أَصْحابُهُ رُضْوانُ اللهِ عَلَيْهِم، فَقَدْ تَجَرَّعَ كُلٌّ مِنْهُم أَلْواناً مِنَ العَذابِ، حتَّـــى ماتَ مِنْهُمْ مَنْ ماتَ تَحْتَ العَذابِ، وَعَميَ مَنْ عَميَ، وَلَمْ يُثْنِهِمْ ذَلِكَ عَنْ دِيْـــنِ اللهِ شَيْئاً.

ويَطولُ البَحْثُ لَوْ ذَهَبْنا نَسْرُدُ نَماذِجَ عَنِ العَذابِ الذي لاقاهُ كُلٌّ مِنْهُمْ[2].

وَنَنْقُلُ هُنا ما رَواهُ الإِمامُ البُخاريُّ[3] عَنْ خَبّابَ بْنِ الأَرَتِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ: أَتَيْتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وَهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهو في ظِلِّ الكَعْبَةِ وَقَدْ لَقينا مِنَ المُشْرِكينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: يا رسولَ الله، أَلاَ تَدْعو اللهَ، فَقَعَدَ وَهو مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، فَقالَ: «لَقَدْ كانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشاطِ الحَديدِ، ما دونَ عِظامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، ما يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دينِهِ، وَيوضَعُ المِنْشارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ باثْنَيْنِ ما يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذا الأَمْرَ حَتَّى يَسيرَ الرّاكِبُ مِنْ صَنْعاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، مـــا يَخافُ إِلّا اللهَ».

---

[1] انظر تاريخ الطَّبري: 344/2 وسيرة ابن هشام: 158/1.

[2] انظر ما لقي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه من المشركين في سيرة ابن هشام أو تهذيب السّيرة وكتاب نور اليقين للخضري وغيرها من كُتب السّيرة.

[3] البخاري في مناقِبِ الأَنْصارِ، بابُ ما لَقيَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وَأَصْحابُهُ مِنَ المُشْرِكينَ بِمكَّةَ (3852).

لقَدْ كانَ جوابُه صلَّى الله عليه وسلَّم لخبّاب تَعبيراً عن السُّنَّة الرَّبانيِّة، في عبادهِ أنَّه لا يَرقى بهم إلى شيءٍ من غاياتِ النَّصرِ والعزَّةِ، ومقوِّمات السَّعادة الاجتماعيَّةِ، أو الفرديَّة، إلّا عن طريقِ تَخطّي عَقباتٍ شديدةٍ وابتلاءاتٍ، فإنْ صبروا محتسبينَ متجمِّلينَ، حقَّق اللهُ لهم الغايات على أحسن وجهٍ، وإلّا بقيتْ حلماً في أذهانهم يستعصي على التَّنْفيذِ.

إذْ كانَ معنى جوابه له: «إن كنت تتعجَّب من العَذابِ والأذى وتستغرب أنْ ترى ذلك في سبيلِ اللهِ عزَّ وجل، فاعلم أنَّ هذا هو السَّبيل الذي لا ثاني له .. وتلك هي سنَّة الله في جميعِ عبادِه الذين آمنوا به: مشّطوا بأمشاط الحديد وتقلَّبوا في أصنافِ الشَّدائد، حتى بلغوا الغاية التي أمرهم الله بالسَّعي إليْها! .. وإن كنت ترى في العَذاب دلائلَ اليأس والقنوط من النَّصر، فأنت متوهِّم. بل الحقُّ هو أنْ تجِد في مظاهرِ العذاب والآلام سيْراً في الطَّريق ودنواً من النَّصرِ. وسينصرنَّ الله هذا الدّين حتى يسير الرَّجل من صنعاءَ إلى حَضرموت لا يَخشى إلاَّ الله، والذئب على غنمه».

سلسلةُ المُفاوَضاتِ

1 – لَمّا رأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحابَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَزيْدونَ، استأْذَنَ عُتْبَةُ بْنُ رَبيْعَةَ أَنْ يأْتيَ رسولَ اللهِ ويَعْرِضَ عليهِ أُموراً لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَها فَيُعْطونَهُ أَيُّها يَشاءُ ويَكُفَّ عَنْهُمْ – وَكانَ عُتْبَةُ سَيِّداً ذا بَصيْرَةٍ وَرأْيٍ في قَوْمِهِ –.

فَقالوا: بَلَى يا أَبا الوَليدِ، قُمْ إلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقامَ إلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إلَى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فَقالَ: يا ابْنَ أَخي، إنَّكَ مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السِّطَةِ[1] في العَشيرَةِ، والمَكانِ في النَّسَبِ، وَإنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظيمٍ فَرَّقْتَ بِهِ جَماعَتَهُمْ

[1] السطة: الشّرف.

وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلامَهُمْ ...، فاسْمَعْ مِنّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُموراً تَنْظُرُ فيها لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْها بَعْضَها. قالَ: فَقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «قُلْ يا أَبا الوَليدِ، أَسْمَعْ»

قالَ: يا ابن أَخي؛

– إنْ كُنْتَ إِنَّما تُريدُ بِما جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذا الأَمْرِ مالاً جَمَعْنا لَكَ مِنْ أَمْوالِنا حَتَّى تَكونَ أَكْثَرَنا مالاً.

– وَإِنْ كُنْتَ تُريدُ بِهِ شَرَفاً سَوَّدْناكَ عَلَيْنا، حَتَّى لا نَقْطَعَ أَمْراً دونَكَ.

– وَإِنْ كُنْتَ تُريدُ بِهِ مُلْكاً مَلَّكْناكَ عَلَيْنا.

– وَإِنْ كانَ هَذا الَّذي يَأْتيكَ رِئْياً[1] تَراهُ لا تَسْتَطيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنا لَكَ الطِّبَّ، وَبَذَلْنا فيهِ أَمْوالَنا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ ...

فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أَقَدْ فَرَغْتَ يا أَبا الوَليدِ؟»

قالَ: نَعَمْ.

قالَ: «فاسْمَعْ مِنّي، ثُمَّ قالَ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ

حم * تَنْزيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ * كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ * بَشيراً وَنَذيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعونَ * وَقالوا قُلوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمّا تَدْعونا إِلَيْهِ وَفي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلونَ * قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يوحَى إِلَيَّ أَنَّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَاسْتَقيموا إِلَيْهِ واسْتَغْفِروهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكينَ﴾ [فصلت: 1 – 6]»، ثُمَّ مَضَى رسولُ اللهِ

---

[1] الرَّئي: ما يَتَراءَى لِلْإِنْسان من الْجِنّ.

صلَّى الله عليه وسلَّم في القِراءَةِ وعُتْبَةُ يَسْمَعُ، حتى وصَلَ إلة قَوْلِـهِ تَعـالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمودَ﴾ [فصلت: 13] فَأَمْسَكَ عُتْبَةُ عَلَى فيهِ وَناشَدَهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكُفَّ عَنِ القِراءَةِ. وَذَلِكَ خَوْفاً مِمّا تَضَمَّنَتْهُ الآيَةُ مِنْ تَهْديدٍ.

ثُمَّ عادَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحابِهِ، فَلَمّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قالوا: ما وَراءَكَ يا أَبا الوَليدِ؟

قالَ: وَرائي أَنّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلاً وَاللَّهِ ما سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهِ ما هو بِالشِّعْرِ، وَلا بِالسِّحْرِ، وَلا بِالكِهانَةِ، يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطيعوني واجْعَلوها بي، وَخَلّوا بَيْنَ هَذا الرَّجُلِ وَبَيْنَ ما هو فيهِ فاعتزلوه، فو الله لَيَكونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظـيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ العَرَبُ فَقَدْ كُفيتُموهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى العَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النّاسِ بِهِ.

قالوا: سَحَرَكَ وَاللَّهِ يا أَبا الوَليدِ بِلِسانِهِ.

قالَ: هَذا رَأْيي فيهِ، فاصْنَعوا ما بَدا لَكُمْ[1].

2 – ورَوى الطَّبَريُّ وَغَيْـرُهُ[2] أنَّ نَفَراً مِنَ المـُشْرِكيْـنَ فيْهِم الوَليدُ بْنُ المُغيرَةِ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ والعاصُ بْنُ وائِلٍ جاؤوا فَعَرَضوا عَلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنْ يُعْطوهُ مِنَ المالِ حَتَّى يَكونَ أَغْناهُم، وأَنْ يُزَوِّجوهُ أَجْمَلَ أَبْكارِهِم، عَلى أَنْ يَتْرُكَ شَتْمَ آلِهَتِهِمْ وَتَسْفيهَ عاداتِهِمْ، فَلَمّا رَفَضَ إِلّا الدَّعْوَةَ إِلى الحَقِّ الذي بُعِثَ بِهِ، قـالوا: فَتَعْبُدُ آلِهَتَنا يَوْماً، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ يَوْماً، وَنَزَلَ تَعْليْقاً عَلى ذَلِكَ قَوْلُه تَعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّها

---

[1] ينظر فيما تقدَّمَ: سيرة ابن هشام (294/1) ودلائل النُّبوَّة للبيهقي (203/2).

[2] تاريخ الطَّبري (337/2) وينظر والبداية والنهاية لابن كثير (221/4).

الكافِرونَ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدونَ، وَلا أَنْتُمْ عابِدونَ ما أَعْبُدُ، وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ، وَلا أَنْتُمْ عابِدونَ ما أَعْبُدُ، لَكُمْ دينُكُمْ وَلِيَ دينِ﴾ [الكافرون: 1- 6].

3 - ثُمَّ إِنَّ أَشْرافَ قُرَيْشٍ عادوا فَكَرَّروا المُحاوَلَةَ التي قامَ بِها عُتْبَةُ بْنُ رَبيْعَةَ، فَذَهَبوا إِلَيْهِ مُجْتَمعيْنَ، وَعَرضوا عَلَيْهِ الزَّعامَةَ والمالَ، وَعَرَضوا عَلَيْهِ الطبَّ إِنْ كانَ هَذا الذي يأْتيْهِ رَئْيّاً مِنَ الجانِّ!...

فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «ما بي ما تَقولونَ، ما جئْتُكُمْ بِما جئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوالَكُمْ، وَلا الشَّرَفَ فيكُمْ، وَلا المُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَني إِلَيْكُمْ رسولاً، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتاباً، وَأَمَرَني أَنْ أَكونَ لَكُمْ بَشيراً نَذيراً، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلوا مِنّي ما جئْتُكُمْ بِهِ فَهو حَظُّكُمْ مِنَ الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللهِ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْني وَبَيْنَكُمْ».

فَقالوا لَهُ: يا مُحَمَّدُ، فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قابِلٍ مِنّا ما عَرَضْنا عَلَيْكَ، فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النّاسِ أَضْيَقَ بلاداً، وَلا أَقَلَّ مالاً، وَلا أَشَدَّ عَيْشاً مِنّا. فَسَلْ لَنا رَبَّكَ الَّذي بَعَثَكَ بِما بَعَثَكَ بِهِ فَلْيُسَيِّرْ عَنّا هَذِهِ الجِبالَ الَّتي قَدْ ضَيَّقَتْ عَلَيْنا، وَلْيَبْسُطْ لَنا بِلادَنا، وَلْيُجْرِ فيها أَنْهاراً كَأَنْهارِ الشّامِ والعِراقِ، وَلْيَبْعَثْ لَنا مَنْ مَضَى مِنْ آبائِنا، وَلْيَكُنْ فيمَنْ يُبْعَثُ لَنا مِنْهُمْ قُصَيُّ بْنُ كِلابٍ ؛ فَإِنَّهُ كانَ شَيْخاً صَدوقاً، فَنَسْأَلَهُمْ عَمّا تَقولُ أَحَقٌّ هو أَمْ باطِلٌ؟ وَلْيَجْعَلْ لَكَ جِناناً وَقُصوراً وَكُنوزاً مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ يُغْنيكَ بِها عَمّا نَراكَ تَبْتَغي .. فَإِنْ صَنَعْتَ ما سَأَلْناكَ وَصَدَّقوكَ، صَدَّقْناكَ وَعَرَفْنا بِهِ مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ وَأَنَّهُ بَعَثَكَ رسولاً كَما تَقولُ.

فَقالَ لَهُمْ: «ما أَنا بِفاعِلٍ ، وَما أَنا بالذي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذا».

ثُمَّ إِنَّهُم قالوا لَهُ – بَعْدَ كَلامٍ وَخِصامٍ –: إِنّا قَدْ بَلَغَنا أَنَّهُ إِنَّما يُعَلِّمُكَ هَذا، رَجُلٌ فِي اليَمامَةِ يُقالُ لَهُ (الرَّحْمَنُ)، وإِنّا واللهِ لَنْ نُؤْمِنَ بالرَّحْمَنِ أَبَداً، فَقَدْ أَعْذَرْنا إِلَيْكَ يا مُحَمَّدُ، وإِنّا واللهِ لا نَتْرُكَكَ وَما بَلَغْتَ مِنّا حتَّى نَهْلِكَ أَو تُهْلِكُنا.

ثُمَّ قاموا وانْصَرَفوا عَنْهُ.

لقد زعم محترفو الغزو الفكري ودعاة التشكيك أَنَّ محمَّداً إِنَّما كانَ يُضْمِر من وراءِ دَعوَتِه رغبةً في السّيادةِ والملك[1]، وفي ما تقدَّم من مفاوضات ردٌّ صريح لا يعتريه لبس عليهم، فهل يقول طالبُ زعامة أو ملك لمن جاءَ يعرضهما عليه، بمواثيق وضمانات: «ما جِئتُكُمْ بما جِئْتُكُمْ بِهِ أطلُبُ أمْوالَكُمْ، ولا الشَّرَفَ فيكُمْ وَلا المُلْكَ عَلَيْكُمْ وَلَكِنَّ الله بَعَثَني إِلَيْكُمْ رسولا وَأَنزلَ عَلَيَّ كِتاباً، وَأَمَرَني أَنْ أَكونَ لَكُمْ بَشيراً وَنَذيراً، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلوا مِنّي ما جِئْتُكُمْ بِهِ فَهو حَظُّكُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لأمْرِ الله حتى يَحْكُمَ الله بَيْني وَبَيْنَكُمْ»[2]؟!.

ثم إن حياته الشَّخصيَّة آنذاك وفيما بعد كانت مصداقاً لكلامه وموقفِهِ هذا، فما أعرضَ عن الملك بالقول والدَّعوى، ليتعلَّق به بالفعل والسُّلوك.

الحِصارُ الاقتِصادي

وَرَدَ بأَسانيدَ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ طَريقِ ابْنِ إِسْحاقَ وغَيْرِهِ عَنْ موسى بْنِ عُقْبَةَ[3]، أَنَّ كُفّارَ قُرَيْشٍ أَجْمَعوا أَمْرَهُمْ واتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى قتل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم

---

[1] اقرأ كتاب (السيادة العربيَّة) تأليف فان فلوتن.

[2] تفسير الطَّبري – جامع البيان ت شاكر (555/17 – 556)

[3] عيون الأثر (147/1)

وَكَلَّموا في ذَلِكَ بَني هاشِمٍ وبَني الـمُطَّلِبِ، وَلـمّا يَئسوا مِنْ جَدْوى مُفاوَضاتِهِمْ مَعَهُ، وَمِنْ إِمْكانِ تَحْويلِهِ عَنْ الدَّعْوَةِ التي يَنْشِرُها بَيْنَ النّاسِ .. غَيْرَ أَنَّهُمْ أَبَوا تَسْليْمِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إِلَيْهِمْ لِيَقْتُلوهُ.

فَلَمّا عَجَزَتْ قُرَيْشٌ عَنْ قَتْلِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أَجْمَعوا عَلَى مُنابَذَتِهِمْ وَكُلِّ مَنْ مَعَهُ مِنَ الـمُسْلِميْنَ، وَمَنْ مَنَعَهُمْ مِنْ قَتْلِهِ مِنْ بَني هاشِمٍ وَبَني الـمُطَّلِبِ، فَكَتَبوا بِذَلِكَ كِتاباً تَعاقَدوا فيْهِ عَلى أَلا يُناكِحوهُمْ، وَلا يُبايعوهُمْ، وَلا يَدَعوا سَبَباً مِنْ أَسْبابِ الرِّزْقِ يَصِلُ إِلَيْهِمْ، وَلا يَقْبَلوا مِنْهُمْ صُلْحاً، وَلا تأْخُذُهُمْ بِهِمْ رأْفَةٌ، حَتَّى يُسَلِّمَ بَنو الـمُطَّلِبِ مُحَمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم إِلَيْهِمْ لِلْقَتْلِ، وَعَلَّقوا الكِتابَ في جَوْفِ الكَعْبَةِ.

والتَزَمَ كُفّارُ قُرَيْشٍ بِهَذا الكِتاب ثَلاثَ سَنَواتٍ، بَدْءاً مِنَ الـمُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ البِعْثَةِ إِلى السَّنَةِ العاشِرَةِ مِنْها، وَقيْلَ: بَلِ استَمَرَ ذَلِكَ سَنَتَيْنِ فَقَطْ.

وَرِوايَةُ موسى بْنُ عُقْبَةَ تَدَلُّ عَلى أَنَّ ذَلِكَ كانَ قَبْلَ أَنْ يأْمُرَ الرَّسولُ أَصْحابَهُ بِالهُجْرَةِ إِلى الحَبَشَةِ، وإِنَّما أَمَرَهُمْ بِها أَثْناءَ هَذا الحِصار.

أَمّا رِوايَةُ ابْنِ إِسْحاقَ فَتَدُلُّ عَلى أَنَّ كِتابَةَ الصَّحيْفَةِ كانَتْ بَعْدَ هُجْرَةِ أَصْحابِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إِلى الحَبَشَةِ وَبَعْدَ إِسْلامِ عُمَرَ رضي الله عنه[1].

وَحوصِرَ بَنو هاشِمٍ وبَنو الـمُطَّلِبِ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ الـمُسْلِميْنَ، وَمَعَهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، في شِعْبِ بَني الـمُطَّلِبِ - وإِنَّما مَكَّةُ شِعابٌ مُتَفَرِّقَةٌ بَيْنَ الجِبالِ - واجتَمَعَ فيْهِ مِنْ بَني هاشِمٍ وبَني الـمُطَّلِبِ الـمُسْلِمونَ والكافِرونَ، أَمّا الـمُسْلِمونَ فَتَدَيُّناً وأَمّا الكافِرونَ فَحَمِيَّةً وإِنْكاراً مِنْهُمْ أَنْ يَصِلوا بِإيذائِهِ صلَّى الله

---

[1] سيرة ابن هشام: (350/1 – 351).

عليه وسلَّم إلى حدِّ الإتِّفاقِ عَلى قَتْلِهِ، إلّا ما كانَ مِنْ عَبْدِ العُزَّى بْنِ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ الـمُلَّقَبُ بـ(أَبي لَهَبٍ)، فإِنَّهُ كانَ مَعَ قُرَيْشٍ، وَظاهَرَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأَصْحابَهُ.

فَجَهِدَ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم والـمُسْلِمونَ جُهْداً شَديْداً في هَـذِهِ الأَعْـوام الثَّلاثَةِ واشْتَدَّ عَلَيهُمُ البَلاءُ، وفي (الصَّحيْحِ) أَنَّهُم جَهِدوا حَتَّى كانوا يأْكُلونَ الخَـبَطَ وَوَرَقِ الشَّجَرِ ...

وَذَكَرَ السُّهَيْلي[1]: أَنَّهُمْ كانوا إذا قَدِمَتْ العيرُ مَكّةَ، يَأْتي أَحَدُ أَصْحابِ رسـولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى السّوقِ لِيَشْتَرِيَ شَيْئاً مِنْ الطَّعامِ لِعيالِهِ، فَيَقومُ أَبو لَهَبٍ عَدو اللهِ فَيَقولُ: «يا مَعْشَرَ التّجّارِ غالوا عَلَى أَصْحابِ مُحَمّدٍ حَتّى لا يُدْرِكوا مَعَكُمْ شَيْئاً» ... فَيَزيدونَ عَلَيْهِمْ في السِّلْعَةِ قيمَتُها أَضْعافاً، حَتّى يَرْجِعَ إِلَى أَطْفالِهِ وَهُـمْ يَتَضاغَوْنَ مِنْ الجَوْعِ وَلَيْسَ في يَدَيْهِ شَيْءٌ يُطْعِمُهُمْ بِهِ ... .

فَلَمّا كانَ رَأْسُ ثَلاثِ سِنينَ مِنْ بَدْءِ هَذا الحِصار، تَلاوَمَ قَوْمٌ مِنْ بَـني قُصَـيٍّ، فَأَجْمَعوا أَمْرَهُمْ عَلَى نَقْضِ ما تَعاهَدوا[2].

وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَى صَحيفَتِهِمُ التي كُتِبَ فيها نَصُّ الـمُعاهَدَةِ الأَرَضَةَ[3] فَأَتَتْ عَلى مُعْظَمِ ما فيها مِنْ ميثاقٍ وَعَهْدٍ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ ذَلِكَ إِلّا الكَلِماتُ التي فيها ذِكْـرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

---

[1] الروض الأنف (217/3).

[2] عيون الأثر (147/1).

[3] الأرضة: دودة بيضاء تأكل الخشب والورق ونحوها.

وَقَدْ أَخْبَرَ بذَلِكَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم عَمَّهُ أَبا طالِبٍ، فَقالَ لَهُ أَبو طالِبٍ: أَرَبُّكَ أَخْبَرَكَ بهَذا؟ قالَ: «نَعَمْ»

فَمَضى في عِصابَةٌ مِنْ قَوْمِهِ إلى قُرَيْشٍ، فَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يأْتوهُ بالصَّحيْفَةِ موهِماً إيّاهُمْ أَنَّهُ نازِلٌ عِنْدَ شُروطِهِمْ فَجاؤوا بها وَهيَ مَطْوِيَّةٌ، فَقالَ أَبو طالِبٍ: إنَّ ابْنَ أخي قَدْ أَخْبَرَني - وَلَمْ يَكْذِبْني قَطُّ - أَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ سَلَّطَ عَلى صَحيْفَتَكُمْ التي كَتَبْتُمْ الأَرَضَةُ فأَتَتْ عَلى كَلِّ ما كانَ فيْها مِنْ جَوْرٍ وَقَطيْعَةِ رَحِمٍ، فإنْ كانَ الحَديْثُ كَما يَقولُ، فأَفيْقوا وارْجِعوا عَنْ سوءِ رأْيكِمْ، فَو اللهِ لا نُسْلِمُهُ حَتَّى نَموتَ مِنْ عِنْدِ آخِرِنا، وإنْ كانَ الذي يَقولُ باطِلاً دَفَعْنا إلَيْكُمْ صاحِبَنا فَفَعَلْتُمْ بِهِ ما تَشاؤونَ، فَقالوا: قَدْ رَضيْنا بالَّذي تَقولُ. فَفَتَحوا الصَّحيْفَةَ فَوَجَدوا الأَمْرَ كَما أَخْبَرَ الصّادِقُ المَصْدوقَ صلَّى الله عليه وسلَّم. فَقالوا: هَذا سِحْرُ ابْنُ أَخيْكَ!» .. وَزادَهُمْ ذَلِكَ بَغْياً وَعُدْواناً.

ثُمَّ إنَّ خَمْسَةً مِنْ رؤُساءِ المُشْرِكيْنَ مِنْ قُرَيْشٍ، مَشَوا في نَقْضِ الصَّحيْفَةِ، وإنْهاءِ هَذا الحِصارِ، وَهُمْ: هِشامُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الحارِثِ، وَزُهَيْرُ بْنُ أُمَيَّةَ، والمُطْعِمُ بْنُ عَديٍّ، وأَبو البَخْتَريِّ بْنُ هِشامٍ، وَزَمْعَةُ بْنُ الأَسْوَدِ.

وَكانَ أَوَّل مَنْ سَعى إلى نَقْضِها بَصَريْحِ الدَّعْوَةِ زُهَيْرُ بْنُ أُمَيَّةَ، أَقْبَلَ عَلى النّاسِ عِنْدَ الكَعْبَةِ فَقالَ: «يا أَهْلَ مَكَّةَ، أَنأْكُلُ الطَّعامَ، وَنَلْبسُ الثّيابَ وبَنو هاشِمٍ والمُطَّلِبِ هَلْكى لا يُباعونَ وَلا يُبْتاعُ مِنْهُمْ؟ .. واللهِ لا أَقْعُدُ حَتَّى تُشَقَّ هَذِهِ الصَّحيْفَةُ القاطِعَةُ الظّالِمَةُ».

ثُمَّ قالَ بَقيَّةُ الخَمْسَةِ نَحْواً مِنْ هَذا الكَلامِ. ثُمَّ قامَ الـــمُطْعِمُ بْـــنُ عَـــديٍّ إلى الصَّحيْفَةِ فَمَزَّقَها، ثُمَّ انطَلَقَ هَؤلاءِ الخَمْسَةُ، وَمَعَهُمْ جَماعَةٌ، إلى بَني هاشِـــمٍ وَبَـــني المُطَّلِب وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ الـــمُسْلِمِيْنَ فأَمَروهُمْ بالخُروجِ إلى مَساكِنِهِمْ[1].

أَوَّل هجرة في الإِسْلام

اشتدَّ الأَذى على رسولِ اللهِ وأَصحابه ولا سيَّما بعدَ خيبةِ آمالِ الـــمُشْرِكيْنَ في المُفاوضاتِ التي قاموا بها ، وبعدَ أنْ مُزِّقَ كتابُ القَطيعةِ على النَّحو الذي تقـــدَّم، وعندئذٍ **قالَ** رسول الله لأصحابِه: «لو خَرجتم إلى أرض الحبشة فإنَّ بها ملكـــاً لا يُظلم عنده أحدٌ، وَهيَ أرض صدْقٍ، حَتَّى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه».

فخرجت عندئذٍ جماعةٌ من الـــمُسْلِمِيْنَ سرّاً إلى أَرضِ الحبشَةِ، فكانَت أَوَّلَ هجرةٍ في الإِسلامِ. وَكانوا عشَرةَ رجالٍ، أمَّروا عليهم عُثمانَ بنَ مَظعونٍ، ثُمَّ لحِقَ بهم جعفرُ بنُ أَبي طالب، وتتابعَ الـــمُسْلِمونَ حَتَّى اجتمَعَ كثيرٌ منهم هُنـــاك، فمنـــهم مـــن اصطَحبَ معهُ أَهلَه، ومنهُم منْ خرجَ بنفسِه، وكانَ جميعُ من هاجرَ إلى الحبشةِ ثلاثة وثَمانينَ رجلاً[2].

وَلَمّا رأَتْ قُرَيْشٌ أنَّ هؤلاءِ قد أَمِنوا واطمأنّوا بأَرضِ الحبشةِ بعَثوا عبدَ الله بنَ أبي ربيعةَ وعمرَو بنَ العاصِ بهَدايا كثيرةٍ إلى النَّجاشيِّ، وإلى بَطارقَتِه مِمّا يُستَطرفُ منْ متاعِ مَكَّة، فقَدِما على النَّجاشيِّ، بعد أنْ استَمالا حاشيتَه وبَطارِقَته وذَكرا لهم المهمَّة التي جاءا مِنْ أَجلِها ، وتكلَّما في مجلسِ المَلِكِ فَقالا: إنَّه لجأَ إلى بلدِ المَلِكِ منّا سُفهاء، فارَقوا دينَ قومِهم و لم يدخلوا في دينكِم، وجاؤوا بدينٍ مُبتَدعٍ لا نعرفُـــه نحـــن ولا

---

[1] سيرة ابن هشام: (371/1 – 372).

[2] سيرة ابن هشام: (330/1) وانظر فتح الباري: (130/7).

أَنتُم، وقد بعَثنا إليكَ أَشرافُ قومِهم منْ آبائِهم وأَعْمامِهم وعَشائرِهم لتردَّهم إليهم فهُم أَبصرُ بهم وأَقربُ إليهم.

وقالتِ البطارِقَة مِنْ حولِه: صَدَقا أيُّها الملِكُ، فأَسلِمهم إليهما.

فغضِب النَّجاشيُّ وأبى أنْ يقبلَ كَلامَهم وأنْ يُسلِّم منْ لَجأَ إليهِ وإلى بلادِه، وأَرسلَ إلى المُسْلِمِيْنَ فدعاهُم وقالَ لهم: «ما هَذا الدّينُ الَّذي قَدْ فارَقْتُمْ فيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلوا (بِهِ) في ديني، وَلا في دينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ ؟».

فَكانَ الَّذي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبي طالِب (رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِ)، فَقالَ لَهُ: أَيُّها الْمَلِكُ، كُنّا قَوْماً أَهْلَ جاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَواحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحامَ، وَنُسيءُ الْجِوارَ، وَيَأْكُلُ الْقَويُّ مِنّا الضَّعيفَ، فَكُنّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنا رسولاً مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمانَتَهُ وَعَفافَهُ، فَدَعانا إِلَى اللهِ لِنوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ ما كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ دونِهِ مِنْ الْحِجارَةِ والأَوْثانِ وَأَمَرَنا بِصِدْقِ الْحَديثِ، وَأَداءِ الأَمانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوارِ، والْكَفِّ عَنْ الْمَحارِمِ والدِّماءِ، وَنَهانا عَنْ الْفَواحِشِ، وَقَوْلِ الزّورِ، وَأَكْلِ مالِ الْيَتيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَناتِ، وَأَمَرَنا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَأَمَرَنا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ- قالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمورَ الإِسْلامِ- فَصَدَّقْناهُ وَآمَنّا بِهِ، واتَّبَعْناهُ عَلَى ما جاءَ بِهِ مِنْ اللهِ، فَعَبَدْنا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئاً، وَحَرَّمْنا ما حَرَّمَ عَلَيْنا، وَأَحْلَلْنا ما أَحَلَّ لَنا، فَعَدا علَيْنا قَوْمُنا، فَعَذَّبونا، وَفَتَنونا عَنْ ديننا، ليَرُدّونا إِلَى عِبادَةِ الأَوْثانِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ تَعالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ ما كُنّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبائِثِ، فَلَمّا قَهَرونا وَظَلَمونا وَضَيَّقوا عَلَيْنا، وَحالوا بَيْنَنا وَبَيْنَ ديننا، خَرَجْنا إِلَى بلادِكَ، واخْتَرْناكَ عَلَى مَنْ سِواكَ، وَرَغِبْنا في جِوارِكَ، وَرَجَوْنا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّها الْمَلِكُ.

فَقالَ لَهُ النَّجاشيُّ: "هَلْ مَعَكَ مِمّا جاءَ بِهِ عَنْ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟"

فَقالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقالَ لَهُ النَّجاشيُّ: "فاقْرَأْهُ عَلَيَّ"

فَقَرَأَ عَلَيْهِ جَعفَرٌ صَدْراً مِنْ سورَةِ مريم، فَبَكَى النَّجاشيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ، وَبَكَتْ أَساقِفَتُهُ حينَ سَمِعوا ما تَلا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قالَ النَّجاشيُّ: «إنَّ هَذا وَالَّذي جاءَ بِهِ عيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكاةٍ واحِدَةٍ[1]».

ثُمَّ التفت إلى رسولي قُرَيْش فَقالَ: «انطَلِقا، فَلا وَاللَّهِ لا أُسْلِمُهُمْ إلَيْكُما، وَلا يُكادونَ».

وأَطلَقَ عمرو بنُ العاصِ آخِرَ سَهْمٍ مِنْ جُعبَتِهِ، فَقالَ للنَّجاشيِّ مِنَ الغَدِ: «أَيُّها الْمَلِكُ، إنَّهُمْ يَقولونَ في عيسَى بن مَرْيَمَ قَوْلاً عَظيماً، فَسَلْهُمْ عَمّا يَقولونَ فيهِ»

فأَقبَلَ الملِكُ عَلى الْمُسْلِمِيْنَ فَقالَ: ماذا تَقولونَ في عيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

فَقالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبي طالِب: نَقولُ فيهِ الَّذي جاءَنا بِهِ نَبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم: هوَ عَبْدُ اللهِ وَرسولُهُ وَروحُهُ وَكَلِمَتُهُ، أَلْقاها إلَى مَرْيَمَ الْعَذْراءِ الْبَتولِ.

فَضَرَبَ النَّجاشيُّ بيَدِهِ إلَى الأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْها عوداً، ثُمَّ قالَ: واللهِ ما عَدا عيسَى بن مَرْيَمَ ما قُلْتَ هَذا الْعودَ».

وردَّ الْمُسْلِمِيْنَ منْ عندِه ردّاً جَميلاً، وأَمَّنَهم، وَخَرجَ عمرٌو وصاحبُه منْ عندِه مَقْبوحينَ، وردَّ إليهما الْهَدايا التي بعثَتْها قُرَيْشٌ إليهِ معهُما[2]، وعاشَ الْمُسْلِمونَ عندَه في خيرِ دارٍ وأَفضَلِ جوارٍ.

---

[1] الْمشكاة: الْمشكاة: الكوة غير النافذة. وقد أَرادَ أَنَّ الْقُرْآن والإِنْجيل كَلام الله تَعالَى، وأَنَّهما من شَيْءٍ واحِد.

[2] سيرة ابن هشام: (232/1) فما بعد.

وبعدَ حين من الزَّمنِ بلغَهُم إسلامُ أَهلِ مَكَّة، فرَجعوا لَمّا بلغَهُم ذلكَ حَتَّى إذا دَنَوا منْ مَكَّةَ بلغَهم أنَّ ما قدْ سمِعوهُ من إسلامِ أَهلِ مَكَّة باطلٌ، فلم يدخُل أحدٌ منهم إلا بجوارٍ، أو مُستَخفياً، وكانَ جميعُهم ثلاثة وَثلاثينَ رجلاً. وكانَ منْ بيْن منْ دخلَ بجوارٍ؛ عثمانُ بنُ مَظعونٍ، دخلَ بجوارِ الوَليدِ بنِ الْمُغيرةِ، وأَبو سلَمة دخلَ بجوارِ أَبي طالبٍ.

هذا ويُمكن أن نَخلُص من أمرِ الرَّسولِ أصحابَه بالهجرَة إلى الحبشَة، ما يدلُّ على أنَّ رابطَة الدّين بينَ الْمُتديِّنين – ولو اختلفت دياناتهم – هي أَقوى وأَوثَق من رابطتِهم مع الوثَنييِّن والْمُلحدينَ.

عام الحزن

في السنَّة العاشرْ من بعثته صلَّى الله عليه وسلَّم، توفّيت زوجتُه خديجةُ بنتُ خويلد رضي الله عنها، وتوفّيَ فيه عمُّه أبو طالبٍ «وَكانَ بَيْنَهُما شَهْرٌ وَخَمْسَةُ أَيّامٍ»[1].

لقَدْ كانَت خديجةُ رضي الله عنها وَزيرَ صِدْقٍ عَلَى الإِسْلامِ، يَشْكو الرَّسولُ إليها، وَيَجدُ عِنْدَها أُنْسَهُ وَسَلْواهُ[2].

أمّا أبو طالبٍ، فقَدْ كانَ – على الرَّغم من عدمِ إيْمانه به – يمنعُه من قومِه كلَّما أَرادوا أنْ يشتَدوا بالأَذيَّة عليه، أو كلُّما حاولوا اغتيالَه والقضاءَ عليه، «فَلَمّا هَلَكَ أَبو طالِبٍ، نالَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِنْ الأَذَى ما لَمْ تَكُنْ تَطْمَعُ بِهِ في حَياةِ أَبي طالِبٍ، حَتَّى اعْتَرَضَهُ سَفيهٌ مِنْ سُفَهاءِ قُرَيْشٍ، فَنَثَرَ عَلَى رَأْسِهِ تُراباً وَدَخَلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بَيْتَهُ والتُّرابُ عَلَى رَأْسِهِ، فَقامَتْ إلَيْهِ

---

[1] الطَّبقات الكبرى لابن سعد (211/1).

[2] ينظر سيرة ابن هشام ت السقا (416/1).

إحْدَى بَناتِهِ، فَجَعَلَتْ تَغْسِلُ عَنْهُ التُّرابَ وَهيَ تَبْكي، وَرسولُ اللهِ صـلَّى الله عليـه وسلَّم يَقولُ لَها: لا تَبْكي يا بُنَيَّةِ، فَإِنَّ اللهَ مانِعٌ أَباكَ»[1].

فمِنْ أَجلِ ما كابده رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في طريق الدَّعْوَة حَتَّى إِنَّ أَبوابَها أوصِدَتْ في وجهِهِ، سُمّي هَذا العام بـ(عامِ الحُزْنِ).

ومنْ أجلِ تخفيفِ هَذا الحُزنِ عليه كانَت تنْزِل آيات مُسلّية و مواسيَة، من مثلِ قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقولونَ، فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبونَكَ، وَلَكِنَّ الظّالِمينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَروا عَلى ما كُذِّبوا وَأوذوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ، وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلينَ * وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً في الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكونَنَّ مِنَ الْجاهِلينَ﴾ [الأنعام: 33- 35].

يتَّضح منْ نزولِ هاتين المُصيبتَين به عليْهِ الصَّلاة والسَّلام، وما أَعقبَهما من شدَّة الأَذى بهِ عليه صلَّى الله عليه وسلَّم وانغِلاقِ السُّبلِ في وجهِه أنَّ العصمةَ التي وعدَها اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّه محمَّداً لا تَعني أنْ لا يَرى من المشركيْنَ أذىً أو عذاباً أو اضطهاداً، وإنَّما معناها العصمةَ من القتلِ، أو منْ أنْ يُصابَ بأَيِّ مصيبةٍ من شأنِها إيقافُ الدَّعْوَةِ الإِسْلاميَّة، وحجبِها عن أنْ تَبْلُغَ مَداها الذي شاءَه الله لَها، فتلك حقيقةُ العصمة التي تعهَّد اللهُ بِها لرسولِه في قولِه له: ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ﴾ [المائدة: 67].

---

[1] رواه ابن إسحاق، وانظر سيرة ابن هشام (416/1) وتاريخ الطَّبري: (544/2).

هجرةُ الرَّسولِ إلى الطّائف

ولَمّا نالتْ قُرَيْشٌ منَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ما وَصفناهُ منَ الأَذى، خرجَ إلى الطّائفِ يلتمسُ النُّصرةَ منْ ثَقيفٍ ويرجو أنْ يقبَلوا منه ما جاءَهُم بهِ منْ عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

ولَمّا انتهى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الطّائفِ عمدَ إلى نفرٍ من ثَقيفٍ، هم يومئذٍ ساداتُه، فجلسَ إليهم ودَعاهُم إلى اللهِ وكلَّمهم بما جاءَهم منْ أَجلِه، فردّوا عليه ردّاً مُنكَراً، وفاجؤوه بما لم يَكنْ يتوقَّع من الغِلظَة وسَمِجِ القولِ. فَقامَ رسولُ اللهِ مِنْ عندِهم وهوَ يرجوهُم أنْ يكتُموا خبرَ مقدَمِهِ إليهم عن قُرَيْشٍ، فلم يُجيبوه إلى ذلكَ أَيضاً. ثُمَّ أغرَوا به سُفهاءَهم وعَبيدَهم يسبّونَه ويصيحونَ بهِ، وجَعلوا يرمونَه بالحِجارةِ حَتَّى أنَّ رِجْلَي رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لتَدميانِ، وزيدُ بنُ حارِثةَ يقيهِ بنفسه حتَّى لقدْ شُجَّ في رأْسِه عدَّة شِجاجٍ[1]، حتَّى وصلَ رسولُ اللهِ إلى بُستانٍ لعُتبةَ بنِ رَبيعةَ، فرجعَ عنهُ من سُفهاءِ ثَقيفٍ من كانَ يتبعُه، فعمدَ عليْهِ الصَّلاة والسَّلام، وقد أَنْهكَه التَّعبُ والجِراحُ، إلى ظلِّ شجرةِ عنبٍ فجلسَ فيه، وابنا ربيعةَ ينظُرانِ إليهِ. فلمّا اطمأنَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في ذلكَ الظلِّ، رفعَ رأْسَه يدعو بهذا الدُّعاءِ: «اللهُمَّ إلَيْكَ أَشْكو ضَعْفَ قوَّتي، وَقِلَّةَ حيلَتي، وَهَواني عَلَى النّاسِ، أَرْحَمَ الرّاحِمينَ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمينَ، إلَى مَنْ تَكِلُني، إلَى عَدوٍّ يَتَجَهَّمُني أَوْ إلَى قَريبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْري، إنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبانَ عَلَيَّ فَلا أُبالي، غَيْرَ أَنَّ عافيَتَكَ أَوْسَعُ لي، أَعوذُ بنورِ وَجْهِكَ الَّذي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ

---

[1] طبقات ابن سعد: 196/1.

الدُّنْيا والآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلا حَوْلَ وَلا قوَّةَ إِلّا بِكَ»[1].

ثُمَّ إِنَّ ابَني ربيعةَ – صاحبَي البُستانِ – تحرَّكتِ الشَّفقةُ في قلبَيْهما، فدَعَوا غُلاماً نَصرانيّاً لهما يُقالُ له (عدّاس) فأَرْسلا إليهِ قِطفاً من العنبِ في طبق، فلمّا وضعَ عدّاس العنبَ بينَ يدَي رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وقالَ له: ُ كُلْ، مدَّ الرَّسولُ يدَه قائلاً: «بسم الله». ثُمَّ أكل، فَقالَ عدّاس متَعجِّباً: والله إنَّ هَذا الكَلام ما يقولُه أَهلُ هَذهِ البِلادِ، فَقالَ له الرَّسولُ: ومنْ أَيِّ البلادِ أَنتَ؟ وما دينُك؟ قالَ: نَصرانيٌّ، وأَنا رجلٌ منْ أَهلِ نَيْنَوى (قريةٌ بالمَوصلِ) ، فَقالَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم: "منْ قريةِ الرَّجُلِ الصّالِحِ يونُسَ بنِ مَتَّى؟" فَقالَ عدّاسٌ: وَما يُدريكَ ما يونُس بنُ متَّى؟ فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: "ذلكَ أَخي، كانَ نَبيّاً وأَنا نَبيٌّ ... فأَكبَّ عدّاس على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقبِّلُ رأَسَه وَيدَيهِ وقدَميهِ»[2].

يقولُ العلاَّمةُ البوطيُّ: ربَّما يتوهَّم من اطَّلع على ظاهرِ سيرةِ هجرتِه علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام إلى الطّائفِ، أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قد غُلِبَ على أَمرِه هناكَ، وأنَّ الضَّجرَ قد نالَ منه، وأنَّه ربَّما استعظم كلَّ تلك المِحَنِ والمشاقِّ التي أَصابتهُ، ولذلكَ توجَّه إلى اللهِ بذلكَ الدُّعاءِ بعدَ أنِ اطمأنَّ في بستانِ ابَني ربيعةَ؛ وَلكنَّ الحقيقةَ أنَّه عليه السَّلام قد استقبلَ تلك المِحَنَ راضياً، وتجرَّع تلك الشَّدائد صابراً مُحتَسباً، وإلاَّ فقَدْ كانَ بوسعِه – لو شاءَ – أنْ ينتَقِم منَ السُّفهاءِ الذينَ آذوه، ومنَ الزُّعماءِ الذينَ أَغْرَوا بهِ أولئكَ السُّفهاءِ وردّوه ذلكَ الرَّدَّ المُنكَرَ، ولكنَّه عليهِ السَّلامُ لم يشأ ذلك.

---

[1] المعجم الكبير للطبراني (73/13) رقم (181) والدُّعاء له: ص (315).

[2] ينظر تفصيلُ ذلك في سيرةِ ابنِ هشامٍ: (420/1).

ودليل ذلك، ما رَوَتْ عائشةُ رضي الله عنها، قالَتْ: قُلْتُ لِرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قالَ: «لَقَدْ لَقيتُ مِنْ قَوْمِكِ ما لَقيتُ، وَكانَ أَشَدَّ ما لَقيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسي عَلَى ابْنِ عَبْدِ ياليلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْني إِلَى ما أَرَدْتُ، فانْطَلَقْتُ وَأَنا مَهْمومٌ عَلَى وَجْهي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلّا وَأَنا بِقَرْنِ الثَّعالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسي، فَإِذا أَنا بِسَحابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْني، فَنَظَرْتُ فَإِذا فيها جِبْريلُ، فَناداني فَقالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَما رَدّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبالِ لِتَأْمُرَهُ بِما شِئْتَ فيهِمْ، فَناداني مَلَكُ الجِبالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ، فَقالَ، ذَلِكَ فيما شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟» فَقالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «بَلْ أَرْجو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً».

إِذنْ فإِنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانَ يعلِّم أَصحابَه وأُمَّته منْ بعدِه بِما كانَ يُلاقيه، الصَّبرَ، بل وفنَّ الصَّبرِ أَيضاً على جميعِ الشَّدائدِ والمكاره في سبيل الله عزَّ وجلَّ[1].

خَبَرُ الْجِنِّ

قالَ ابنُ إِسْحاقَ: «ثُمَّ إِنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم انْصَرَفَ مِنْ الطّائِفِ راجِعاً إِلَى مَكَّةَ، حينَ يَئِسَ مِنْ خَيْرِ ثَقيفٍ، حَتَّى إِذا كانَ بِنَخْلَةَ[2] قامَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ يُصَلّي، فَمَرَّ بِهِ النَّفَرُ مِنْ الْجِنِّ الَّذينَ ذَكَرَهُمْ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى، وَهُمْ- فيما

---

[1] فقه السّيرة: (102).

[2] نَخْلَة: أحد واديين على لَيْلَة من مَكَّة، يُقال لأَحَدهما نَخْلَة الشامية، وَللآخر نَخْلَة اليمانية.

ذُكِرَ لِي- سَبْعَةُ نَفَرٍ مِنْ جِنِّ أَهْلِ نَصيبينَ[1]، فاسْتَمَعوا لَهُ، فَلَمّا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرينَ، قَدْ آمَنوا وَأَجابوا إِلَى ما سَمِعوا. فَقَصَّ اللهُ خَبَرَهُمْ عَلَيْهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعونَ الْقُرْآنَ ... ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 31]. وَقالَ تَبارَكَ وَتَعالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ... ﴾ [الجن: 1] إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ مِنْ خَبَرِهِمْ فِي هَذِهِ السّورَةِ.

وقد تكرَّرَ استِماعِ الجِنِّ لِقراءَةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[2] فعَنِ ابْنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما «انْطَلَقَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في طائِفَةٍ مِنْ أَصْحابِهِ عامِدينَ إِلَى سوقِ عُكاظٍ، وَقَدْ حيلَ بَيْنَ الشَّياطينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّياطينُ، فَقالوا: ما لَكُمْ؟ فَقالوا: حيلَ بَيْنَنا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنا الشُّهُبُ، قالَ: ما حالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّماءِ إِلّا ما حَدَثَ، فاضْرِبوا مَشارِقَ الأَرْضِ وَمَغارِبَها، فانْظُروا ما هَذا الأَمْرُ الَّذي حَدَثَ، فانْطَلَقوا فَضَرَبوا مَشارِقَ الأَرْضِ وَمَغارِبَها، يَنْظُرونَ ما هَذا الأَمْرُ الَّذي حالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، قالَ: فانْطَلَقَ الَّذينَ تَوَجَّهوا نَحْوَ تِهامَةَ إِلَى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بِنَخْلَةَ، «وَهوَ عامِدٌ إِلَى سوقِ عُكاظٍ وهوَ يُصَلّي بِأَصْحابِهِ صَلاةَ الفَجْرِ فَلَمّا سَمِعوا القُرْآنَ تَسَمَّعوا لَهُ»، فَقالوا: هَذا الَّذي حالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، فَهُنالِكَ رَجَعوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقالوا: يا قَوْمَنا ﴿إِنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً، يَهْدي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً﴾

---

[1] نَصيبينَ: قاعِدَة ديارِ رَبيعَة.

[2] ينظر عيون الأثر لابن سيد النّاس: (118/1) وفتح الباري: (473/8).

[الجن: 2] " وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبيِّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿قُلْ أوحيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنّ﴾ [الجن: 1] وَإِنَّما أوحيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ»[1].

يقولُ العلاَّمةُ البوطيُّ رحمه الله تعالى: فيما قصَّه علَيْنا ابنُ إِسحاقَ منِ استِماعِ النَّفرِ منَ الجِنِّ إليه، وهوَ يُصلّي منْ جوْفِ اللَّيلِ، دَليلٌ على وجودِ الجِنِّ وأَنَّهم مكلَّفونَ، وأنَّ فيهم مَنْ آمَنَ باللهِ ورسولِه وفيهِم مَنْ كَفرَ وَلم يؤمِنْ. وقد ارتقَت هَذِهِ الدَّلالةُ إِلى درجَةِ اليقينِ والقَطعِ، إذ إنَّ القرآنَ تَحدَّثَ عنهم بنصوصٍ قاطعةٍ صريحةٍ، كالآيات التي في سورةِ الجِنِّ، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعونَ الْقُرْآنَ﴾ إِلى قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 29 – 31][2].

ثم قالَ: والذي يهمّنا أنْ نعلَمه بعدَ هَذا كلِّه، هو أنَّ على المسلمِ أنْ يعتقِدَ ويوقِنَ بوجودِ الجنِّ، وبأنَّهم كائناتٌ حيَّةٌ كلَّفهم اللهُ عزَّ وجلَّ بعبادتِه كما كلَّفنا بذلك، ولئن كانت حواسُّنا لا تشعُر بِهم، فذلك لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ وجودَهم غير خاضعٍ للطّاقة البصريَّة التي بثَّها في أَعينِنا، ومعلومٌ أنَّ أَعيُنَنا إِنَّما تُبصِرُ أَنواعاً محدَّدةً منَ الموجوداتِ وإِلى مدى محدَّد، وبشروطٍ معيَّنةٍ.

ولَمّا كانَ وجود هَذِهِ الخليقة مستنداً إِلى أخبارٍ يقينيَّةٍ متواترةٍ وردت إلينا من الكِتابِ والسُّنَّةِ، وكانَ أمرُها معلوماً من الدّينِ بالضَّرورةِ – فقد أَجمعَ الـمُسْلِمونَ على أن إنكارَ الجنِّ أو الشَّك في وجودِهم يستلزِم الرِّدَّة والخروجَ عن الإِسلامِ. إذ أنَّ

---

[1] البخاري في تفسير القرآن، بابُ ﴿وَدّاً وَلاَ سواعاً، وَلاَ يَغوثَ وَيَعوقَ﴾ [نوح: 23] (4921).

[2] فقه السّيرة: (104)

إِنْكارَهم إنكارٌ لشيءٍ عُلِمَ أنَّه منَ الدّينِ بالبَداهةِ والضَّرورةِ، فضْلاً عن أنَّه يتضمَّن تكذيبَ الخبرِ الصّادقِ المتواترِ الواردِ إلينا عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعنْ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

عودته صلَّى الله عليه وسلَّم إلى مكة

ثُمَّ عادَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم – ومعَه زيدُ بنُ حارثةَ – يريدُ دُخولَ مَكَّة. فَقالَ له زيدٌ: كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ يَعْني قُرَيْشاً وَهُمْ أَخْرَجوكَ؟ فَقالَ: «يا زَيْدُ إِنَّ اللهَ جاعِلٌ لِما تَرَى فَرَجاً وَمَخْرَجاً، وَإِنَّ اللهَ ناصِرٌ دينَهُ وَمُظْهِرٌ نَبيَّهُ» ثُمَّ انْتَهَى إِلَى حِراءٍ فَأَرْسَلَ رَجُلاً مِنْ خُزاعَةَ إِلَى مُطْعِمِ بْنِ عَديٍّ: «أَدْخُلُ في جِوارِكَ؟» فَقالَ: نَعَمْ، وَدَعا بَنيهِ وَقَوْمَهُ فَقالَ: تَلَبَّسوا السِّلاحَ، وَكونوا عِنْدَ أَرْكانِ الْبَيْتِ فَإِنّي قَدْ أَجَرْتُ مُحَمَّداً، فَدَخَلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وَمَعَهُ زَيْدُ بْنُ حارِثَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَقامَ مُطْعِمُ بْنُ عَديٍّ عَلَى راحِلَتِهِ فَنادَى: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنّي قَدْ أَجَرْتُ مُحَمَّداً فَلا يَهْجُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ، فانْتَهَى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إِلَى الرُّكْنِ فاسْتَلَمَهُ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وانْصَرَفَ إِلَى بَيْتِهِ وَمُطْعِمُ بْنُ عَديٍّ وَوَلَدُهُ مُطيفونَ بِهِ[2].

يقول العلامة البوطي[3] معلّقاً على هذا المقطع: والفائدةُ التَّعليميَّة لنا في هَذا الأَمرِ، هيَ أنْ لا تصدَّنا المِحنُ والعَقباتُ التي تظهرُ في طريقِ الدَّعْوَة إلى اللهِ عن متابعةِ السَّيرِ باستقامةٍ وثباتٍ، ما دمنا واثقينَ بأنَّنا نسيرُ على هديٍ من الإيمانِ باللهِ

---

[1] فقه السّيرة: (106)

[2] طبقات ابن سعد: 212/1، واينظر سيرة ابن هشام: 381/1.

[3] فقه السّيرة: (106)

وتوفيقِه، وعلى صراطٍ متقيِّدٍ بأحكامِ الشَّريعَةِ الإِسْلاميَّة وآدابِها، إذْ مادامَ أنَّ الله هوَ الآمرُ، فلا شكَّ أنَّه هو النّاصِرُ أَيْضاً.

ولا يُمكِن أن يتخلَّف النَّصرُ إلّا إذا تخلَّف المسلمونَ عنِ الانضباطِ بالأَوامرِ والحدودِ التي أَلزمَهم اللهُ بِها، وفي مقدَّمتِها الإخلاصُ لوجهِ اللهِ، ثم الارتباطُ بأوامِرِهِ، والابتعادِ عن نواهيهِ.

معجزة الإسراء والمعراج

(الإِسراءُ): الرِّحلةُ التي أَكرمَ اللهُ بِها نبيَّه عليه الصَّلاة والسَّلام مِنَ المَسجدِ الحَرامِ بمَكَّة إِلى المَسجدِ الأَقْصى بالقُدسِ.

و(المِعراجُ): ما أَعقبَ الإِسراءَ مِنَ العُروجِ بهِ عليه الصَّلاة والسَّلام إِلى السَّماواتِ العُلا ثُمَّ الوصول بهِ إِلى حدٍّ انقطَعَتْ عندَه علومُ الخَلائقِ منَ مَلائكةٍ وإِنْسٍ وجنٍّ كلٌّ ذلكَ في ليلةٍ واحدةٍ.

وقد حصلَتْ هذِه الرِّحلةُ قبلَ الهجرَةِ بثَمانيةَ عشرَ شَهراً.

وجمهورُ المُسْلِميْنَ على أنَّ هذِه الرِّحلةَ كانَت بالجِسمِ والرّوحِ معاً، ولذلكَ فهيَ منْ مُعجزاتِه الباهرَة التي أَكرمَه اللهُ بِها.

وقد جاءَت قصَّةُ الإسراءِ والمِعراجِ بطولِها في الصَّحيحَيْنِ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: «أُتيتُ بالْبُراق، وَهوَ دابَّةٌ أَبْيَضُ طَويلٌ فَوْقَ الْحِمارِ، وَدونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ»، قالَ: «فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ»، قالَ: «فَرَبَطْتُهُ بالْحَلْقَةِ الَّتي يَرْبطُ بِهِ الْأَنْبياءُ»، قالَ " ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجدَ، فَصَلَّيْتُ فيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجاءَني جبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ بِإِناءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِناءٍ مِنْ لَبَنٍ، فاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقالَ جبْريلُ صلَّى الله عليه

وسلَّم: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إِلَى السَّماءِ، فاسْتَفْتَحَ جبْريلُ، فَقيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قالَ: جبْريلُ، قيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنا، فَإِذا أَنا بآدَمَ، فَرَحَّبَ بي، وَدَعا لي بخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إِلَى السَّماءِ الثّانيَةِ، فاسْتَفْتَحَ جبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قالَ: جبْريلُ، قيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنا، فَإِذا أَنا بابْنَيْ الْخالَةِ عيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيّاءَ، صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِما، فَرَحَّبا وَدَعَوا لي بخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بي إِلَى السَّماءِ الثّالِثَةِ، فاسْتَفْتَحَ جبْريلُ، فَقيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قالَ: جبْريلُ، قيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، قيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنا، فَإِذا أَنا بيوسُفَ صلَّى الله عليه وسلَّم، إِذا هوَ قَدِ أُعْطيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعا لي بخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إِلَى السَّماءِ الرّابعَةِ، فاسْتَفْتَحَ جبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، قيلَ: مَنْ هَذا؟ قالَ: جبْريلُ، قيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنا فَإِذا أَنا بِإِدْريسَ، فَرَحَّبَ وَدَعا لي بخَيْرٍ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيّاً﴾ [مريم: 57]، ثُمَّ عُرِجَ بنا إِلَى السَّماءِ الْخامِسَةِ، فاسْتَفْتَحَ جبْريلُ، قيلَ: مَنْ هَذا؟ فَقالَ: جبْريلُ، قيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنا فَإِذا أَنا بهارونَ صلَّى الله عليه وسلَّم، فَرَحَّبَ، وَدَعا لي بخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إِلَى السَّماءِ السّادِسَةِ، فاسْتَفْتَحَ جبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، قيلَ: مَنْ هَذا؟ قالَ: جبْريلُ، قيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ، قيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنا، فَإِذا أَنا بموسَى صلَّى الله عليه وسلَّم، فَرَحَّبَ وَدَعا لي بخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بنا إِلَى السَّماءِ السّابعَةِ، فاسْتَفْتَحَ جبْريلُ، فَقيلَ: مَنْ هَذا؟ قالَ: جبْريلُ، قيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، قيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنا فَإِذا أَنا بِإِبْراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم مُسْنِداً ظَهْرَهُ

إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمورِ، وَإِذا هوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعودونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذا وَرَقُها كَآذانِ الْفيَلَةِ، وَإِذا ثَمَرُها كالْقِلالِ"، قالَ: "فَلَمّا غَشيَها مِنْ أَمْرِ اللهِ ما غَشيَ تَغَيَّرَتْ، فَما أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَنْعَتَها مِنْ حُسْنِها، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ ما أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسينَ صَلاةً في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى موسَى صلَّى الله عليه وسلَّم، فَقالَ: ما فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسينَ صَلاةً، قالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطيقونَ ذَلِكَ، فَإِنّي قَدْ بَلَوْتُ بَني إِسْرائيلَ وَخَبَرْتُهُمْ"، قالَ: "فَرَجَعْتُ إِلَى رَبّي، فَقُلْتُ: يا رَبِّ، خَفِّفْ عَلَى أُمَّتي، فَحَطَّ عَنّي خَمْساً، فَرَجَعْتُ إِلَى موسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنّي خَمْساً، قالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا يُطيقونَ ذَلِكَ، فارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفيفَ"، قالَ: "فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبّي تَبارَكَ وَتَعالَى، وَبَيْنَ موسَى عَلَيْهِ السَّلامُ حَتَّى قالَ: يا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَواتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسونَ صَلاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَها كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها لَمْ تُكْتَبْ شَيْئاً، فَإِنْ عَمِلَها كُتِبَتْ سَيِّئَةً واحِدَةً"، قالَ: "فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى موسَى صلَّى الله عليه وسلَّم، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ التَّخْفيفَ"، فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: " فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ"[1].

---

[1] البخاري في التَّوحيدِ، بابُ قَوْلِهِ: ﴿وكَلَّمَ اللهُ موسَى تَكْليماً﴾ [النساء: 164] (7517)، مسلم في الإيمانِ، بابُ الإِسْراءِ بِرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إِلَى السَّماواتِ، وَفَرْضِ الصَّلَواتِ (162). واللَّفظُ لَهُ.

واحذر من الكتاب المعروف بـــ(معراج ابن عباس) فهو مليء بالكذب والأباطيل وابن عباس بريءٌ منه.

وَلَمّا كانَتْ صَبيْحَةُ اليَوْمِ الثّاني وَحَدَّثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم النّاسَ بِما شَهِدَ، طَفِقَ الـــمُشْرِكونَ يَجْمَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِيَتَناقَلوا هَذا الخَبَرَ الطَّرِيْف وَيَضْحَكوا مِنْهُ ..

وَتَحَدّاهُ بَعْضُهُمْ أَنْ يَصِفَ لَهُمْ بَقايا بَيْتِ الـــمَقْدِسِ ما دامَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ وَصَلَّى فيْهِ، – وكانَ بَيْتُ الـــمَقْدِسِ آنَذاكَ أَطْلالاً باقِيَةً – ولَمْ يَكُنْ قَدْ خَطَرَ في بالِ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَنْ يُجيْلَ النَّظَرَ فيْهِ وَيَحْفَظَ أَشْكالَهُ وَما تَبَقى مِنْ دَعائمِهِ وسَواريْهِ، فَجَلا لَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صوْرَتَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وأَخَذَ يَصِفُهُ لَهُمْ وَصْفاً تَفْصيلِيّاً كَما يَسْأَلونَ.

عَنْ جابرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عَنْهُما رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَنَّه قال: «لَمّا كَذَّبَتْني قُرَيْشٌ، قُمْتُ في الْحِجْرِ، فَجَلا اللهُ لي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آياتِهِ، وَأَنا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»[1].

أَمّا أَبو بكرٍ رَضيَ اللهُ عنهُ فقد أَسْرَعَ فَحدثه بعض الـــمُشْرِكيْنَ عما يقوله رسول اللهِ، رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه، فَقالَ: «قالَ: لَئِنْ كانَ قالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قالوا: وَتُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَجاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قالَ: نَعَمْ ، إِنّي لَأُصَدِّقُهُ بِما هوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ: أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّماءِ في غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ»[2].

وَفي صَبيْحَةِ لَيْلَةِ الإِسْراءِ جاءَ جِبْريلُ وَعَلَّمَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كَيْفيَّةِ الصَّلاةِ وأَوْقاتِها.

---

[1] البخاري في مناقب الأنصار، بابُ حَديثِ الإِسْراءِ (3886)، ومسلم في الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال (170).

[2] دلائل النبوة للبيهقي (361/2).

وَكانَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام قَبْلَ مَشْروعيَّةِ الصَّلاةِ يُصَلّي رَكْعَتَيْنِ صَباحاً وَمِثْلَيْهِما مَساءَ، كَما كانَ يَفْعَلُ إِبْراهيْمُ عَلَيْهِ السَّلامُ.

لقدْ جاءتْ ضيافةُ الإِسراءِ والمعراجِ تكريماً منَ اللهِ تعالى لنبيِّه، وفيها تجديدٌ لعزيمَتِه وثباتِه، وهي دليلٌ على أنَّ هَذا الذي يلاقيه علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام من قومِه هو سنَّةُ اللهِ معَ محبّيه ومحبوبيه، وَسنَّةُ الدَّعْوَة الإِسْلاميَّة في كلِّ عصرٍ وزمانٍ.

عرْضُ الرَّسولِ نفسَه على القَبائلِ

وبَدءُ إِسلامِ الأَنصارِ

لَمْ يقصِرِ النّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الدَّعْوَة على قومِه منْ قُرَيْشٍ الذينَ لم يألُوا جهداً في إِذاقَتِه كلَّ أَصنافِ المِحَنِ والمَصائبِ. بل كانَ يدخلُ بيْنَ القَبائلِ الآتيةِ منْ خارجِ مَكَّةَ منْ شتَّى الجِهاتِ والأَطْرافِ بمناسَبة موسِم الحجِّ، فيعرِضُ نفسَه كدلاَّلٍ عليهم ويدعوهُم إِلى بضاعَةِ الدّيْنِ وكترِ التَّوحيدِ، ويذهبُ ويَجيءُ بينَهم فلا يَرى مُجيباً له. عَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قالَ: كانَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النّاسِ بِالْمَوْقِفِ فَيَقولُ: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُني إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ مَنَعوني أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبّي؟!»[1].

---

[1] أحمد في المسند (15192) أبو داود في السنَّةِ، بابٌ في الْقُرْآنِ (4734) والترمذيِّ فَضائِلِ الْقُرْآنِ (2925)، النسائي (الكبرى) في النعوت (7680) ابن ماجه في المُقدِّمة، بابٌ فيما أَنْكَرَتِ الْجَهْمِيَّةُ (201) قالَ التِّرمذيُّ: «هَذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ». وينظر فتح الباري: 156/7، وزاد المعاد: 50/2.

جاءَ في طَبقاتِ ابنِ سعْدٍ: أَقامَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بِمَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ مِنْ أَوَّلِ نُبوَّتِهِ مُسْتَخْفياً، ثُمَّ أَعْلَنَ في الرّابِعَةِ، فَدَعا النّاسَ إِلَى الإِسْلامِ عَشْرَ سِنِينَ يوافي الْمَواسِمَ كُلَّ عامٍ يَتَّبِعُ الْحاجَّ في مَنازِلِهِمْ في الْمَواسِمِ بِعُكاظٍ، وَمَجَنَّةَ، وَذي الْمَجازِ يَدْعوهُمْ إِلَى أَنْ يَمْنَعوهُ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسالاتِ رَبِّهِ وَلَهُمُ الْجَنَّةُ، فَلا يَجِدُ أَحَداً يَنْصُرُهُ وَلا يُجيبُهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْأَلُ عَنِ الْقَبائِلِ وَمَنازِلِها قَبيلَةً قَبيلَةً، وَيَقولُ: «يا أَيُّها النّاسُ، قولوا: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحوا وَتَمْلِكوا بِها الْعَرَبَ، وَتَذِلَّ لَكُمُ الْعَجَمُ، وَإِذا آمَنْتُمْ كُنْتُمْ مُلوكاً في الْجَنَّةِ» وَأَبو لَهَبٍ وَراءَهُ يَقولُ: لا تُطيعوهُ، فَإِنَّهُ صابِئٌ كاذِبٌ، فَيَرُدّونَ عَلَى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَقْبَحَ الرَّدِّ، وَيُؤْذونَهُ، وَيَقولونَ: أُسْرَتُكَ وَعَشيرَتُكَ أَعْلَمُ بِكَ، حَيْثُ لَمْ يَتَّبِعوكَ، وَيُكَلِّمونَهُ وَيُجادِلونَهُ وَيُكَلِّمُهُمْ، وَيَدْعوهُمْ إِلَى اللهِ، وَيَقولُ: «اللهُمَّ لَوْ شِئْتَ لَمْ يَكونوا هَكَذا»[1].

وعَنِ الزُّهريِّ: أَنَّهُ صلَّى الله عليه وسلَّم أَتَى بَني عامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، فَدَعاهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، فَقالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقالُ لَهُ (بَيْحَرَةُ بْن فِراسٍ): واللهِ، لَوْ أَنّي أَخَذْتُ هَذا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ، لأَكَلْتُ بِهِ الْعَرَبَ.

ثُمَّ قالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ نَحْنُ بايَعْناكَ عَلَى أَمْرِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ عَلَى مَنْ خالَفَكَ، أَيَكونُ لَنا الأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟

قالَ: «الأَمْرُ إِلَى اللهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشاءُ».

---

[1] الطَّبقات الكبرى ط دار صادر (216/1)، وروى ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام: (423/1).

قالَ: فَقالَ لَهُ: أَفَتُهْدَفُ[1] نَحورُنا لِلْعَرَبِ دونَكَ، فَإذا أَظْهَرَكَ اللهُ كانَ الأَمْرُ لِغَيْرِنا! لا حاجَةَ لَنا بِأَمْرِكَ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ[2].

وَلَما كانت السَّنَة الحادية عشْرَةَ منَ البعثَةِ آذنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إظْهارَ دينِهِ، وَإعْزازَ نَبيِّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وَإنْجازَ مَوْعِدِهِ لَهُ، فخَرَجَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبائِلِ الْعَرَبِ، كَما كانَ يَصْنَعُ في كُلِّ مَوْسِمٍ، فَبَيْنَما هوَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ لَقيَ رَهْطاً مِنْ الْخَزْرَجِ أَرادَ اللهُ بِهِمْ خَيْراً، (وَهُم: أَسعَدُ بنُ زُرارَةَ، وَعَوفُ بنُ الحارِثِ، ورافِعُ بنُ مالِكٍ، وقُطبَةُ بنُ عامِرٍ، وَعُقبَةُ بنُ عامرٍ، وجابِرُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ رِئابٍ) فَقالَ لَهُمْ: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قالوا: نَفَرٌ مِنْ الْخَزْرَجِ، قالَ: «أَمِنْ مَوالي يَهودَ؟» قالوا: نَعَمْ، قالَ: «أَفَلا تَجْلِسونَ أُكَلِّمُكُمْ؟» قالوا: بَلَى. فَجَلَسوا مَعَهُ، فَدَعاهُمْ إلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ الإِسْلامَ، وَتَلا عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ. قالَ: وَكانَ مِمّا مَهَّدَ أَفئدَتَهُم لِقَبولِ الإِسْلامِ، أَنَّ اليَهودَ كانوا مَعَهُمْ في بِلادِهِمْ، وَكانوا أَهْلَ كِتابٍ وَعِلْمٍ، وَكانوا هُمْ أَهْلَ شِرْكٍ وَأَصْحابَ أَوْثانٍ، وَكانوا قَدْ غَزَوْهُمْ بِبِلادِهِمْ، فَكانوا إذا كانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ قالوا لَهُمْ: نَبيّاً مَبْعوثٌ الآنَ، قَدْ أَظَلَّ زَمانُهُ، نَتَّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عادٍ وَإرَمَ. فَلَمّا كَلَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أولَئِكَ النَّفَرَ، وَدَعاهُمْ إلَى اللهِ، قالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يا قَوْمِ، تَعْلَموا واللهِ إنَّهُ لَلنَّبيُّ الَّذي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهودُ، فَلا تَسْبِقُنَّكُمْ إلَيْهِ؛ فَأَجابوهُ فيما دَعاهُمْ إلَيْهِ، بِأَنْ صَدَّقوهُ وَقَبِلوا مِنْهُ ما عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ الإِسْلامِ،

---

[1] تهدف: أي تصير هدفا يرْمى.

[2] سيرة ابن هشام: (425/1)، وينظر تاريخ الطَّبري: (350/2).

وَقالوا: إنّا قَدْ تَرَكْنا قَوْمَنا، وَلا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَداوَةِ والشَّرِّ ما بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمْ اللهُ بِكَ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ، فَنَدْعوهُمْ إلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضُ عَلَيْهِمْ الَّذي أَجَبْناكَ إلَيْهِ مِنْ هَذا الدّينِ، فَإِنْ يَجْمَعْهُمْ اللهُ عَلَيْهِ فَلا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ.

ثُمَّ انْصَرَفوا عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم راجِعينَ إلَى بِلادِهِمْ، وَقَدْ آمَنوا وَصَدَّقوا، وَوَعَدوهُ الْمُقابَلَةَ في المَوْسِمِ المُقْبِلِ[1].

بَيعَةُ العَقبةِ الأوْلى

وانتَشَر الإسلامُ خِلالَ ذلكَ العامِ في المَدينَةِ، حَتَّى إذا كانَ الْعامُ الْمُقْبِلُ وافَى الْمَوْسِمَ مِنْ الأَنْصارِ اثْنا عَشَرَ رَجُلاً، فَلَقَوْهُ بِالْعَقَبَةِ - وَهيَ الْعَقَبَةُ الأوْلى - فَبايَعوا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عَلَى بَيْعَةِ النِّساءِ[2].

عَنْ عُبادَةَ بْنِ الصّامِتِ، قالَ: كُنْتُ فيمَنْ حَضَرَ الْعَقَبَةَ الأولَى، وَكُنّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، فَبايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عَلَى بَيْعَةِ النِّساءِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُفْتَرَضَ الْحَرْبُ، عَلَى أَنْ لا نُشْرِكَ باللهِ شَيْئاً، وَلا نَسْرِقَ، وَلا نَزْنِيَ، وَلا نَقْتُلَ أَوْلادَنا، وَلا نَأْتِيَ بِبُهْتانٍ نَفْتَريهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدينا وَأَرْجُلِنا، وَلا نَعْصيَهُ في مَعْروفٍ. فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةُ.

---

[1] سيرة ابن هشام: (428/1) بتصرُّفٍ.

[2] أي على نَمَطِ بيعةِ النِّساءِ في البُنودِ، وَكانَتْ بَيعَةُ النِّساءِ ثاني يومِ الفَتحِ على جَبلِ الصَّفا بعدَما فرَغَ منْ بَيعَةِ الرِّجالِ، قد ذكر اللهُ تَعالَى بيعَة النِّساء في الْقُرْآن، فَقالَ: ﴿**يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً**﴾ [الممتحنة: 12] وأَرادَ بِبَيْعَةِ النِّساء أَنَهنَّ لَمْ يُبايعوهُ على الْقِتالِ.

وَإِنْ غَشيتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ شاءَ عَذَّبَ وَإِنْ شاءَ غَفَرَ[1].

وَبذلكَ نرى أنَّ حكمةَ الله عزَّ وجلَّ اقتَضتْ أَنْ يَكونَ أَنصارُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الأوَل منْ غيرْ بيئتِه وقومِه، حَتَّى لا يظنَّ ظانٌّ بأنَّ دعوةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كانَت في حقيقتِها دعوةً قوميَّةً حاكَتها رغباتُ قومِه وظروفُ بيئتِه.

وفي هذا ما يدلُّ دلالةً بيِّنةً أنَّ العِنايةَ الإلهيَّة تَحوطُ حياةَ الدَّعْوَة النَّبويَّة وظروفها مِنْ كلِّ جانبٍ، لقدْ مهَّد اللهُ عزَّ وجلَّ حياةَ المَدينَة وبيئتَها لقَبولِ الدَّعْوَة الإسْلاميَّة، ذلك الموضعَ الذي لَدى أَهلِه تهيؤٌ نفسيٌّ لقَبولِ هَذا الدّينِ.

إرسال مصعب بن عمير إلى المدينة

فَلَمّا أَرادَ المُبايعونَ منْ أَهلِ المَدينةِ الانْصِرافَ بَعَثَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مَعَهُمْ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُقْرِئَهُمْ الْقُرْآنَ، وَيُعَلِّمَهُمْ الإِسْلامَ، وَيُفَقِّهَهُمْ في الدّينِ، فَكانَ يُسَمَّى (مُقْرِئَ الْمَدينَةِ)، وَكانَ مَنْزِلُهُ عَلَى أَسْعَدِ بْنِ زُرارَةَ[2].

انطلقَ مصعَب سَعيداً بتلبيةِ أَمْرِ الرَّسولِ علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام، وراحَ يَدعو أَهلَ المَدينةِ إِلى الإِسلامِ، ويَقرأُ عليهم القُرآنَ ويبلِّغهم أَحكامَ الله، ولقَدْ كانَ الرَّجلُ يَدخلُ

---

[1] سيرة ابن هشام: (433/1). وينظر البخاري أَحاديثُ الأَنْبياءِ، بابُ وُفودِ الأَنْصارِ إِلَى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بِمَكَّةَ، وَبَيْعَةِ العَقَبَةِ، (3892)، ومسلم في الحدود. **بابُ الْحُدودُ كَفّاراتٌ لأَهْلِها (1709)**.

[2] سيرة ابن هشام: (434/1).

عليهِ وَفي يدِه حربةٌ يريدُ أنْ يقتلَه بها، فَما هوَ إلاَّ أنْ يتلوَ عليهِ شيئاً منَ القُرآنِ، ويعرِّفه على بعضِ مبادئ الإِسلام وأَحكامِه، حَتَّى يُلقيَ حربتَه ويتَّخِذ مجلسَه معَ مَنْ حَوْلَه مُسْلِماً موحِّداً يتعلَّم القرآنَ وأَحكامَ الدّينِ الجديدِ، حَتَّى انتشرَ الإِسْلامُ ذلك العام في المَدينة كلِّها.

ومُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ أَوَّلُ سَفيرٍ للإِسْلامِ ولِرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كانَ أَنْعمَ غُلامٍ بمَكَّة، وأَجوَد شُبّانِها حلَّةً وبَهاءً، فلَمّا آمَنَ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ودَخلَ في الإِسلامَ، طوى كلَّ تلك الرَّفاهية وذلكَ النَّعيم، وانطلَق في سبيلِ الدَّعْوَة الإِسْلاميَّة من وراءِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يتجرَّعُ كلَّ شدَّةٍ ويستعذِبُ كلَّ عذابٍ حَتَّى قضى نَحبَه شَهيداً في غزوةِ أُحدَ، وليسَ لهُ مِمّا يلبسُه إلاَّ ثوبٌ واحِدٌ، أَرادوا أنْ يكفِّنوه بهِ، فكانوا إذا غطّوا به رأسَه خرجَت رِجلاهُ، وإذا غطّوا رِجليهِ خرجَ رأسُه فأَخبروا بذلكَ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فبَكى للَّذي كانَ فيهِ من النِّعمةِ في صدرِ حياتِه، ثُمَّ قال: «ضَعوهُ مِمّا يَلي رأْسَهُ واجْعَلوا على رِجلَيْهِ شَيْئاً مِنَ الإِذْخِرِ»[1].

بَيعَةُ العَقبةِ الثانية

قالَ محمَّد بن إسحاق: ثُمَّ إنَّ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ، وَخَرَجَ مَنْ خَرَجَ مِنْ الأَنْصارِ مِنْ الْمُسْلِمينَ إِلَى الْمَوْسِمِ مَعَ حَجّاجِ قَوْمِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، حَتَّى

[1] مسلم: (48/3)، وانظر الإصابة لابن حجر: (403/3).

قَدِموا مَكَّةَ، فَواعَدوا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم الْعَقَبَةَ، مِنْ أَوْسَطِ أَيّامِ التَّشْريقِ، حينَ أَرادَ اللهُ بِهِمْ ما أَرادَ مِنْ كَرامَتِهِ، والنَّصْرِ لِنَبيِّهِ، وَإِعْزازِ الإِسْلامِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلالِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

وَعَنْ كَعْبِ بنِ مالِكِ بنِ القَيْنِ رضي الله عنه قالَ: ثُمَّ خَرَجْنا إِلَى الْحَجِّ، وَواعَدْنا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بِالْعَقَبَةِ مِنْ أَوْسَطِ أَيّامِ التَّشْريقِ. قالَ: فَلَمّا فَرَغْنا مِنْ الْحَجِّ، وَكانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتي واعَدْنا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَها، ...

فَنِمْنا تَلِكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنا في رِحالِنا، حَتَّى إذا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنا مِنْ رِحالِنا لِمَعادِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ الْقَطا مُسْتَخْفينَ، حَتَّى اجْتَمَعْنا في الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ ثَلاثَةٌ وَسَبْعونَ رَجُلاً، وَمَعَنا امْرَأَتانِ مِنْ نِسائِنا: نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ، أُمُّ عُمارَةَ، وَأَسْماءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَديِّ بْنِ نابي، أُمُّ مَنيعٍ.

قالَ: فاجْتَمَعْنا في الشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، حَتَّى جاءَنا وَمَعَهُ (عَمُّهُ) الْعَبّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دينِ قَوْمِهِ، إلّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخيهِ وَيَتَوَثَّقَ لَهُ. فَلَمّا جَلَسَ كانَ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ الْعَبّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقالَ: إنَّ مُحَمَّداً مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْناهُ مِنْ قَوْمِنا، مِمَّنْ هوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنا فيهِ، فَهوَ في عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ في بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إلّا الانْحيازَ إِلَيْكُمْ، واللُّحوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وافونَ لَهُ بِما دَعَوْتُموهُ إِلَيْهِ، وَمانِعوهُ مِمَّنْ خالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَما تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِموهُ وَخاذِلوهُ بَعْدَ

الْخُروجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنْ الآنَ فَدَعوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ. قالَ: فَقُلْنا لَهُ: قَدْ سَمِعْنا ما قُلْتُ، فَتَكَلَّمْ يا رسولَ اللهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ ما أَحْبَبْتُ.

قالَ: فَتَكَلَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فَتَلا الْقُرْآنَ، وَدَعا إِلَى اللهِ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلامِ، ثُمَّ قالَ: «أُبايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعوني مِمّا تَمْنَعونَ مِنْهُ نِساءَكُمْ وَأَبْناءَكُمْ». قالَ: فَأَخَذَ الْبَراءُ بْنُ مَعْرورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قالَ: نَعَمْ، وَالَّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيّاً، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنا، فَبايِعْنا يا رسولَ اللهِ، فَنَحْنُ وَاللَّهِ أَبْناءُ الْحُروبِ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ[1]، وَرِثْناها كابِراً عَنْ كابِرٍ.

قالَ: فاعْتَرَضَ الْقَوْلَ - والْبَراءُ يُكَلِّمُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم - أَبو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهانِ، فَقالَ: يا رسولَ اللهِ، إِنَّ بَيْنَنا وَبَيْنَ الرِّجالِ حِبالاً، وَإِنّا قاطِعوها - يَعْني الْيَهودَ - فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنا؟ قالَ: فَتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثُمَّ قالَ: «بَلْ الدَّمَ الدَّمَ، والْهَدْمَ الْهَدْمَ[2]، أَنا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنّي، أُحارِبُ مَنْ حارَبْتُمْ، وَأُسالِمُ مَنْ سالَمْتُمْ».

قالَ كَعْبُ بْنُ مالِكٍ: وَقَدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أَخْرِجوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقيباً، لِيَكونوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِما فيهِمْ. فَأَخْرَجوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقيباً، تِسْعَةً مِنْ الْخَزْرَجِ، وَثَلاثَةً مِنْ الأَوْسِ ...».

---

[1] الْحلقَة، أَي السِّلاح.

[2] كانَت الْعَرَبُ تَقولُ عِنْدَ عقْدِ الْحلفِ والجِوارِ: دَمي دمُك، وَهدْمي هدمُك؛ أَي: ما هدَمتَ منَ الدِّماءِ هدمتُه أَنا. وقال ابن هشام: الْهَدْمَ يَعْني الْحُرْمَةَ، أَيْ ذِمَّتي ذِمَّتُكُمْ، وَحُرْمَتي حُرْمَتُكُمْ.

فقالَ صلَّى الله عليه وسلَّم لِلنُّقَباءِ: «أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِما فيهِمْ كُفَلاءُ، كَكَفالَةِ الْحَواريّينَ لِعيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَنا كَفيلٌ عَلَى قَوْمي- يَعْني الْمُسْلِمينَ -» قالوا: نَعَمْ.

فقام الْعَبّاسُ بْنُ عُبادَةَ بْنِ نَضْلَةَ الأَنْصاريُّ فَقالَ: هَلْ تَدْرونَ عَلامَ تُبايعونَ هَذا الرَّجُلَ؟ قالوا: نَعَمْ، قالَ: إِنَّكُمْ تُبايعونَهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ مِنْ النّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إذا نُهِكَتْ أَمْوالُكُمْ مُصيبَةً، وَأَشْرافُكُمْ قَتْلاً أَسْلَمْتُموهُ، فَمِنْ الآنَ، فَهوَ وَاللَّهِ إنْ فَعَلْتُمْ خِزْيُ الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وافونَ لَهُ بِما دَعَوْتُموهُ إِلَيْهِ عَلَى نَهْكَةِ الأَمْوالِ، وَقَتْلِ الأَشْرافِ، فَخُذوهُ، فَهوَ وَاللَّهِ خَيْرُ الدُّنْيا والآخِرَةِ. – وإِنَّما قالَ الْعَبّاسُ ذَلِكَ لِيَشُدَّ الْعَقْدَ لِرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في أَعْناقِهِمْ -، قالوا: فَإِنّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصيبَةِ الأَمْوالِ، وَقَتْلِ الأَشْرافِ، فَما لَنا بِذَلِكَ يا رسولَ اللهِ إنْ نَحْنُ وَفَّيْنا بِذَلِكَ؟ قالَ: "الْجَنَّةُ". قالوا: اُبْسُطْ يَدَكَ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبايَعوهُ.

ثُمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «ارْفَضّوا[1] إِلَى رِحالِكُمْ».

فَقالَ لَهُ الْعَبّاسُ بْنُ عُبادَةَ بْنِ نَضْلَةَ: وَاللَّهِ الَّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ: إنْ شِئْتَ لَنَميلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَداً بِأَسْيافِنا؟ قالَ: فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ ارْجِعوا إِلَى رِحالِكُمْ». قالَ: فَرَجَعْنا إِلَى مَضاجِعِنا، فَنِمْنا عَلَيْها حَتَّى أَصْبَحْنا.

---

[1] ارفضوا: تفرقوا.

غُدوُّ قُرَيْشٍ عَلَى الأَنْصارِ في شَأْنِ الْبَيْعَةِ:

قالَ: فَلَمّا أَصْبَحْنا غَدَتْ عَلَيْنا جُلَّةُ قُرَيْشٍ، حَتَّى جاءونا في مَنازِلِنا، فَقالوا: يا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صاحِبِنا هَذا تَسْتَخْرِجونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنا، وَتُبايِعونَهُ عَلَى حَرْبِنا، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ ما مِنْ حَيٍّ مِنْ الْعَرَبِ أَبْغَضُ إِلَيْنا، أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ، مِنْكُمْ. قالَ: فانْبَعَثَ مَنْ هُناكَ مِنْ مُشْرِكي قَوْمِنا يَحْلِفونَ بِاللهِ ما كانَ مِنْ هَذا شَيْءٌ، وَما عَلِمْناهُ. قالَ: وَقَدْ صَدَقوا، لَمْ يَعْلَموهُ. قالَ: وَبَعْضُنا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ. قالَ: ثُمَّ قامَ الْقَوْمُ ...

خُروجُ قُرَيْشٍ في طَلَبِ الأَنْصارِ

قالَ: وَنَفَرَ النّاسُ مِنْ مِنًى، فَتَنَطَّسَ[1] الْقَوْمُ الْخَبَرَ، فَوَجَدوهُ قَدْ كانَ، وَخَرَجوا في طَلَبِ الْقَوْمِ، فَأَدْرَكوا سَعْدَ بْنَ عُبادَةَ بِأَذاخِرَ[2]، والْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرٍو، وَكِلاهُما كانَ نَقيباً. فَأَمّا الْمُنْذِرُ فَأَعْجَزَ الْقَوْمَ، وَأَمّا سَعْدٌ فَأَخَذوهُ، فَرَبَطوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ بِنِسْعِ[3] رَحْلِهِ، ثُمَّ أَقْبَلوا بِهِ حَتَّى أَدْخَلوهُ مَكَّةَ يَضْرِبونَهُ، وَيَجْذِبونَهُ بِجُمَّتِهِ[4]، وَكانَ ذا شَعَرٍ كَثيرٍ.

---

[1] تنطس الْقَوْم الْخَبَر: أَي أَكْثروا الْبَحْث عَنهُ. والتنطس: تدقيق النّظر.

[2] أذاخر موضع قريب من مَكَّة.

[3] النسع: الشراك الّذي يشد بِهِ الرحل.

[4] الجمة: مُجْتَمع شعر الرَّأْس.

يقول سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ: فو الله إنّي لَفي أَيْديهِمْ يَسْحَبونَني إذْ أَوَى لي[1] رَجُلٌ مِمَّنْ كانَ مَعَهُمْ، فَقالَ: وَيْحَكَ! أَما بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ قُرَيْشٍ جِوارٌ وَلا عَهْدٌ؟ قالَ: قُلْتُ: بَلَى، واَللَّهِ، لَقَدْ كُنْتُ أُجيرُ لِجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمِ تِجارَةً، وَأَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ أَرادَ ظُلْمَهُمْ بِبِلادي، وَلِلْحارِثِ بْن حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، قالَ: وَيْحَكَ! فاهْتِفْ بِاسْمِ الرَّجُلَيْنِ، واذْكُرْ ما بَيْنَكَ وَبَيْنَهُما. قالَ: فَفَعَلْتُ، وَخَرَجَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَيْهِما، فَوَجَدَهُما في الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَقالَ لَهُما: إنَّ رَجُلاً مِنْ الْخَزْرَجِ الآنَ يُضْرَبُ بِالأَبْطَحِ وَيَهْتِفُ بِكُما، وَيَذْكُرُ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَكُما جِواراً، قالا: وَمَنْ هوَ؟ قالَ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ، قالا: صَدَقَ واَللَّهِ، إنْ كانَ لَيُجيرُ لَنا تِجارَنا، وَيَمْنَعُهُمْ أَنْ يُظْلَموا بِبَلَدِهِ. قالَ: فَجاءا فَخَلَّصا سَعْداً مِنْ أَيْديهِمْ، فانْطَلَقَ.

شُروطُ الْبَيْعَةِ في الْعَقَبَةِ الأَخيرَةِ

قالَ ابْنُ إسْحاقَ: وَكانَتْ بَيْعَةَ الْحَرْبِ، حينَ أَذِنَ اللهُ لِرسولِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في الْقِتالِ شُروطاً سِوَى شَرْطِهِ عَلَيْهِمْ في الْعَقَبَةِ الأولَى، كانَتْ الأولَى عَلَى بَيْعَةِ النِّساءِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعالَى لَمْ يَكُنْ أَذِنَ لِرسولِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في الْحَرْبِ، فَلَمّا أَذِنَ اللهُ لَهُ فيها، وَبايَعَهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في الْعَقَبَةِ الأَخيرَةِ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ، أَخَذَ لِنَفْسِهِ واشْتَرَطَ عَلَى الْقَوْمِ لِرَبِّهِ، وَجَعَلَ لَهُمْ عَلَى الْوَفاءِ بِذَلِكَ الْجَنَّةَ.

---

[1] أَوَى لَهُ: رَحِمَه ورق لَهُ.

عَنْ عُبادَةَ بْنِ الصّامِتِ، وَكانَ أَحَدَ النُّقَباءِ، قالَ: بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بَيْعَةَ الْحَرْبِ – وَكانَ عُبادَةُ مِنْ الاثْنَيْ عَشَرَ الَّذينَ بايَعوهُ في الْعَقَبَةِ الأولَى عَلَى بَيْعَةِ النِّساءِ – عَلَى السَّمْعِ والطّاعَةِ، في عُسْرِنا وَيُسْرِنا وَمَنْشَطِنا وَمَكْرَهِنا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنا، وَأَنْ لا نُنازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقولَ بِالْحَقِّ أَيْنَما كُنّا، لا نَخافُ في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ[1].

لَقَدْ كانَت بَيعَةُ العَقبةِ الثّانية الأَساس الذي هاجرَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى المدينةِ بناءً عليه، ولذا فقَدْ كانَت شاملةً للمَبادئ التي ستتمُّ مَشروعيَّتها بعد الهجرةِ إلى المدينةِ، وفي مقدِّمتها الجهادُ والدِّفاعُ عنِ الدَّعْوَة بالقوَّة، وهوَ حكمٌ وإنْ لَمْ يَكنْ قد أذِنَ اللهُ بتنفيذِه في مَكَّة، فإنَّ الحكمةَ اقتَضَتْ أَنْ تَكونَ هذِه البَيعَة مقدِّمةً وتمهيداً لها.

ومنْ هُنا يُعْلَم أنَّ مشروعيَّة القِتالِ في الإِسلامِ لم تكُنْ إلاَّ بعدَ هجرَتهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وليس كما قد يفهم أنَّه إنَّما شُرِعَ قَبلَ الهِجرةِ عِنْدَ بَيعَةِ العَقبةِ الثانيَّة.

والدَّليلُ على هَذا ما مرَّ أَنَّ العبّاسَ بنَ عُبادَة قالَ بعدَ البَيعَةِ: وَاللَّهِ الَّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ: إنْ شِئْتَ لَنَميلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَداً بِأَسْيافِنا؟ قالَ: فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ ارْجِعوا إِلَى رِحالِكُمْ».

---

[1] ينظر فيما تقدَّم: سيرة ابن هشام: 1/438 – 440، ومسند الإمام أحمد، والطَّبري، والعمدة في كلٍّ ذلك على ابن إسحاق.

أَوَّل آية نزلت في الإذن بالحرب للرسول صلَّى الله عليه وسلَّم

كانَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قَبْلَ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ في الْحَرْبِ، وَلَمْ تُحَلَّلْ لَهُ الدِّماءُ، إِنَّما يُؤْمَرُ بِالدُّعاءِ إِلَى اللهِ والصَّبْرِ عَلَى الأَذَى، والصُّفْحِ عَنْ الْجاهِلِ، وَكانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ اضْطَهَدَتْ مَنْ اتَّبَعَهُ ليفتِنوهُمْ عَنْ دينِهِمْ، ... إِلى أن أَذِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرسولِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في الْقِتالِ والانْتِصارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَبَغَى عَلَيْهِمْ، فَكانَتْ أَوَّلُ آيَةٍ أُنْزِلَتْ في إِذْنِهِ لَهُ في الْحَرْبِ قوله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذينَ يُقاتَلونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِموا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَديرٌ * الَّذينَ أُخْرِجوا مِنْ ديارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقولوا رَبُّنا اللهُ، وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كَثيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَويٌّ عَزيزٌ﴾ [الحج: 39-40][1].

[1] سيرة ابن هشام (467/1)

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الهجرة إلى المدينةِ المُنوَّرةِ

Damascus University

وقل رب زدني علما
Damascus University

كانت بَيعَةَ العَقبةِ الثّانية، المقدِّمة الأوْلى لِهجرتِه علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام إلى المَدينةِ المُنوَّرة.

روى ابنُ سعدٍ في طَبقاته[1] عَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها: لَمّا صَدَرَ السَّبْعونَ مِنْ عِنْدِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم طابَتْ نَفْسُهُ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ مَنَعَةً وَقَوْماً أَهْلَ حَرْبٍ وَعِدَّةٍ وَنَجْدَةٍ، وَجَعَلَ الْبَلاءَ يَشْتَدُّ عَلَى الْمُسْلِمينَ مِنَ الْمُشْرِكينَ لِما يَعْلَمونَ مِنَ الْخُروجِ فَضَيَّقوا عَلَى أَصْحابِهِ وَتَعَبَّثوا بِهِمْ، وَنالوا مِنْهُمْ ما لَمْ يَكونوا يَنالونَ مِنَ الشَّتْمِ والأَذَى فَشَكا ذَلِكَ أَصْحابُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم واسْتَأْذَنوهُ في الْهِجْرَةِ، فَقالَ: «قَدْ أُخْبِرْتُ بِدارِ هِجْرَتِكُمْ وَهِيَ يَثْرِبُ، فَمَنْ أَرادَ الْخُروجَ فَلْيَخْرُجْ إِلَيْها»، فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَتَجَهَّزونَ وَيَتَوافَقونَ وَيَتَواسونَ وَيَخْرُجونَ وَيُخْفونَ ذَلِكَ، فَكانَ أَوَّلَ مَنْ قَدِمَ الْمَدينَةَ مِنْ أَصْحابِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَبو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِ، ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَهُ عامِرُ بْنُ رَبيعَةَ مَعَهُ امْرَأَتُهُ لَيْلَى بِنْتُ أَبي حَثْمَةَ، فَهِيَ أَوَّلُ ظَعينَةٍ[2] قَدِمَتِ الْمَدينَةَ ثُمَّ قَدِمَ أَصْحابُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أَرْسالاً، فَنَزَلوا عَلَى الأَنْصارِ في دورِهِمْ فَآوَوْهُمْ وَنَصَروهُمْ وَآسوهُمْ.

ولم يُهاجِرْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحابِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلّا مُتَخفّياً، غَيْرَ عُمَرَ بْنِ الخَطّاب رَضيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَدْ رَوى عَليٌّ بنُ أَبي طالِبٍ رَضيَ اللهُ عنهُ أَنَّهُ لَمّا هَمَّ بِالْهِجْرَةِ تَقَلَّدَ سَيْفَهُ، وَتَنَكَّبَ قَوْسَهُ، وانْتَضَى في يَدِهِ أَسْهُماً، واخْتَصَرَ عَنَزَتَهُ،

---

[1] الطَّبقات الكبرى ط دار صادر (1/225-226) وينظر تاريخ الطَّبري: (1/367).

[2] الظَّعينةُ هي المَرأةُ التي تَكونُ في الهَودجِ.

وَمَضَى قِبَلَ الْكَعْبَةِ، والمــَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ بِفِنائِها، فَطافَ بِالْبَيْتِ سَبْعاً مُتَمَكِّناً، ثُمَّ أَتَى المــُقامَ، فَصَلَّى مُتَمَكِّناً، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى الحَلَقِ، وَقالَ لَهُمْ: «شاهَتِ الْوُجوهُ، لا يَرْغَمُ اللهُ إِلّا هَذِهِ المــَعاطِسَ، مَنْ أَرادَ أَنْ تَثْكُلَهُ أُمُّهُ، وَيوتِمَ وَلَدَهُ، وَيُرْمِلَ زَوْجَتَهُ، فَلْيَلْقَني وَراءَ هَذا الْوادي، قالَ عَليٌّ: فَما تَبِعَهُ أَحَدٌ إِلاَّ قَوْمٌ مِنَ المــُسْتَضْعَفينَ عَلَّمَهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ وَمَضَى لِوَجْهِهِ»[1].

هِجرَةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأَبي بَكرٍ رضي الله عنه:

ثُمَّ إِنَّ أَبا بَكْرٍ الصِّدّيق رَضيَ اللهُ عنهُ لَــمّا وَجَدَ الــمُسْلِمِيْنَ قد تَتابَعوا مُهاجرينَ إِلى المدينَةِ، جاءَ يَستأْذِنُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم هوَ الآخَرُ في الهجرَةِ.

فَقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنّي أَرْجو أَنْ يُؤْذَنَ لي».

قالَ أَبو بَكْرٍ: وهَلْ تَرْجو ذَلِكَ بِأَبي أَنْتَ؟

قالَ: «نَعَمْ»، فَحَبَسَ أَبو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ راحِلَتَيْنِ كانَتا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ[2].

---

[1] أسد الغابة: (58/4)، وانظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة (286/2)

تنكب قوسه: ألقاه على منكبه، والعَنــزَةُ: مثل نصف الرمح أو أكبر، واختِصَرها: امْسَكُها باليد، والحلق- بفتحتين- واحدها: حلقة، أراد حلقات القوم. وشاهت الوجوه، أي: قَبُحَت، المــَعاطِس: الأنوف.

[2] البخاري: في الكفالة، بابُ جِوارِ أَبي بَكْرٍ في عَهْدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وَعَقْدِهِ، (2175).

وفي هَذِهِ الأَثْناءِ رأَتْ قُريشٌ أَنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد صارَتْ لَهُ شيْعَةٌ وأَصْحابٌ مِنْ غَيْرِهِمْ بِغَيْرِ بَلَدِهِمْ، فحذروا خُروجَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إِلَيْهِم وَخافوا أَنْ يَكونَ قَدْ أَجْمَعَ لِحَرْبِهِمْ.

فاجتَمَعوا لهُ في دارِ النَّدْوَةِ – وهيَ دارُ قُصَيِّ بنِ كِلابٍ التي كانتْ قُريشٌ لا تَقْضي أَمْراً إِلا فيها – يتَشاوَرونَ فيما يَصْنَعونَ بِأَمْرِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فاجْتَمعَ رأْيُهُمْ أَخيراً على أَنْ يَأْخذوا مِنْ كُلِّ قَبيْلَةٍ فتًى شابّاً جَلْداً، ثُمَّ يُعْطى كُلُّ مِنْهُم سَيْفاً صارِماً، ثُمَّ يَعْمُدوا إِلَيْه فيَضْرِبوهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ واحدٍ فيَقْتُلوهُ، كي لا يَقْدِرَ بَنو عبْدِ مَنافٍ على حَرْبِهِم جَميعاً، وَضَرَبوا لِذَلِكَ ميْعادَ يَوْمٍ مَعْلومٍ، فأَتى جِبْريلُ عليهِ السَّلامُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَأْمُرُه بالهجْرَةِ، ويَنْهاهُ أَنْ يَنامَ في مَضْجَعِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ[1].

قالَتْ عائِشَةُ[2] رضي الله عنها: فَبَيْنَما نَحْنُ يَوْماً جُلوسٌ في بَيْتِ أَبي بَكْرٍ في نَحْرِ – حَرِّ – الظَّهيرَةِ، قالَ قائِلٌ لأَبي بَكْرٍ: هَذا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مُتَقَنِّعاً، في ساعَةٍ لَمْ يَكنْ يَأْتينا فيها، فَقالَ أَبو بَكْرٍ: فِداءٌ لَهُ أَبي وَأُمّي، واللهِ ما جاءَ بِهِ في هَذِهِ السّاعَةِ إِلّا أَمْرٌ، قالَتْ: فَجاءَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقالَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لأَبي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ». فَقالَ أَبو بَكْرٍ: إِنَّما هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبي أَنْتَ يا رسولَ اللهِ، قالَ: «فَإِنّي قَدْ أُذِنَ لي في الخُروجِ»

---

[1] سيرة ابن هشام: (155/1) وطبقات ابن سعد: (212/1).

[2] البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه إلى المدينة (3905)

فَقالَ أَبو بَكْرٍ: الصَّحابَةُ بِأَبي أَنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «نَعَمْ» قالَ أَبو بَكْرٍ: فَخُذْ - بِأَبي أَنْتَ يا رسولَ اللهِ - إِحْدَى راحِلَتَيَّ هاتَيْنِ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: «بِالثَّمَنِ».

قالَتْ عائِشَةُ: فَجَهَّزْناهُما أَحَثَّ الجِهازِ، وَصَنَعْنا لَهُما سُفْرَةً في جِرابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْماءُ بِنْتُ أَبي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطاقِها، فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ (ذاتَ النِّطاقَيْنِ)[1].

- وانْطَلَقَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إِلى عَلِيِّ بنِ أَبي طالِبٍ رَضيَ اللهُ عنهُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَخَلَّفَ بَعْدَهُ بِمَكَّةَ، رَيْثَما يُؤَدّيَ عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم الْوَدائِعَ، الَّتي كانَتْ عِنْدَهُ لِلنّاسِ، إِذْ لَمْ يَكنْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لَهُ شَيْءٌ يُخْشَى عَلَيْهِ إِلّا إِلّا استَوْدَعَهُ عِنْدَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، لِما يُعْلَمونَ مِنْ صِدْقِهِ وَأَمانَتِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم[2].

- وَأَمَرَ أَبو بَكْرٍ ابْنَهُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبي بَكْرٍ أَنْ يَتَسَمَّعَ لَهُما ما يَقولُ النّاسُ فيهِما نَهارَهُ، ثُمَّ يَأْتيهِما إِذا أَمْسَى بِما يَكونُ في ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْخَبَرِ[3].

---

[1] قالَ ابنُ سعْدٍ: "أَخَذَتْ نِطاقَها فَشَقَّتْهُ باثْنَيْنِ، فَجَعَلَتْ واحِداً لِسُفْرَةِ رسولِ اللهِ والآخَرَ عِصاماً لِقِرْبَتِهِ لَيْلَةَ خَرَجَ رسولُ اللهِ وَأَبو بَكْرٍ إِلَى الْغارِ، فَسُمِّيَتْ (ذاتَ النِّطاقَيْنِ)". الطَّبقات الكبرى (250/8).

[2] ينظر: سيرة ابن هشام: (485/1).

[3] ينظر سيرة ابن هشام (485/1).

– وَأَمَرَ عامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ مَوْلاهُ أَنْ يَرْعَى غَنَمَهُ نَهارَهُ، ثُمَّ يُرِيحُها عَلَيْهِما، يَأْتِيهِما إذا أَمْسَى في الْغارِ (غار ثور)[1]، لِيَطْعَما مِنْ أَلْبانِها.

– وأَمَرَ أَسَماءَ بِنْتَهُ أَنْ تَأْتِيهِما مِنْ الطَّعامِ إذا أَمْسَتْ بِما يُصْلِحُهُما[2].

عَنْ أَسْماءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، قالَتْ: "لَمّا خَرَجَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وَخَرَجَ مَعَهُ أَبو بَكْرٍ، احْتَمَلَ أَبو بَكْرٍ مالَهُ كُلَّهُ مَعَهُ: خَمْسَةَ آلافِ دِرْهَمٍ، أَوْ سِتَّةَ آلافِ دِرْهَمٍ". قالَتْ: «وانْطَلَقَ بِها مَعَهُ».

قالَتْ: "فَدَخَلَ عَلَيْنا جَدّي أَبو قُحافَةَ وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَقالَ: واللهِ إنّي لأَراهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمالِهِ مَعَ نَفْسِهِ، قالَتْ: قُلْتُ: كَلّا يا أَبَهْ، إنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنا خَيْراً كَثيراً". قالَتْ: "فَأَخَذْتُ أَحْجاراً، فَوَضَعْتُها في كوَّةِ الْبَيْتِ، كانَ أَبي يَضَعُ فيها مالَهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْها ثَوْباً، ثُمَّ أَخَذْتُ بيَدِهِ، فَقُلْتُ: يا أَبَهْ، ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذا الْمالِ". قالَتْ: "فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، فَقالَ: لا بَأْسَ، إنْ كانَ قَدْ تَرَكَ لَكُمْ هَذا، فَقَدْ أَحْسَنَ، وَفي هَذا لَكُمْ بَلاغٌ". قالَتْ: «وَلا واللهِ ما تَرَكَ لَنا شَيْئاً، وَلَكِنّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُسْكِنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ»[3].

وَلَمّا كانَتْ عَتَمَةُ تِلْكَ اللَّيْلَة التي هاجَرَ فيها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم اجتَمَعَ المُشْرِكونَ عَلى بابِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَتَرَبَّصونَ بِهِ لِيَقْتُلوهُ، ولَكِنَّهُ

---

[1] ينظر سيرة ابن هشام (485/1).

[2] المرجع السّابق.

[3] ينظر: سيرة ابن هشام: (488/1) ومسند أحمد (26957).

عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَدْ أَلْقى اللهُ عَلَيهِم سَنَةً مِنَ النَّوْمِ بَعْدَ أَنْ تَرَكَ عَلِيّاً رَضيَ اللهُ عنهُ في مَكانِهِ نائماً عَلى فِراشِهِ، وَطَمْأَنَهُ بأَنَّه لَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ أَيُّ مَكْروهٍ.

وانْطَلَقَ رسولُ اللهِ وَصاحبُهُ أَبو بَكْرٍ إِلى غارِ ثَوْرٍ لِيُقيْما فيهِ، وَكانَ ذَلِكَ عَلى الرّاجِحِ في اليَوْمِ الثّاني مِنْ رَبيعٍ الأَوَّل المـــوافِق (20/أَيْلول/622 م) بَعْدَ أَنْ مَضى ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةٍ مِنَ البِعْثَةِ، فدَخَلَ أَبو بَكْرٍ قَبْلَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم فلَمَسَ الغارَ، لِيَنْظُرَ أَ فيهِ سَبُعٌ أَو حيَّةٌ ؟! يَقي رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بِنَفْسِهِ، فأَقاما فيهِ ثَلاثَةَ أَيّامٍ، وَكانَ يَبيْتُ عِنْدَهُما عبدُ اللهِ بنُ أَبي بَكْرٍ يُخْبِرُهُما بأَخْبارِ مَكَّةَ، ثمَّ يُدْلِجُ مِنْ عِنْدَهُما بسَحَرٍ فيُصبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبائتٍ بِها. وَكانَ عامِرُ بنُ فُهَيْـــرَةَ يَروحُ عَلَيْهِما بِقِطْعَةٍ مِنَ الغَنَمِ، فإِذا خَرَجَ مِنْ عِنْدَهُما عَبْدُ اللهِ تَبِعَ عامِرٌ أَثَرَهُ بالغَنَمِ كَيْ لا يَظْهَرَ لِقَدَمَيْهِ أَثَرٌ.

أَمّا المـــُشْرِكونَ فَقَدْ انْطَلَقوا – بَعْدَ أَنْ عَلِموا بِخُروجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم – يَنْتَشِرونَ في طَريقِ المـــَدِيْنَةِ، وَيُفَتِّشونَ عنهُ في كُلِّ المـــَظانِّ، حَتَّى وَصَلوا إِلى غارِ ثَوْرٍ، وَسَمِعَ الرَّسولُ وَصاحِبُهُ أَقْدامَ المـــُشْرِكيْنَ تَخْفِقُ مِنْ حَوْلِهِمْ، فأَخَذَ الرّوْعُ أَبا بَكْرٍ وَهَمَسَ يُحدِّثُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنا تَحْتَ قَدَمَيْهِ». فأَجابَهُ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام فَقالَ: «يا أَبا بَكْرٍ ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثالِثُهُما؟!»[1].

---

[1] البخاري باب قوله ﴿ثانيَ اثْنَيْنِ . . .﴾ (4663)، ومسلم باب من فضائل أبي بكر (2381).

فأَعْمى اللهُ أَبْصارَ المــُشْرِكيْنَ حَتَّى لَمْ يَحُنْ لأَحَدٍ مِنْهُمُ التِفاتَةٌ إلى ذلكَ الغارِ، وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِ واحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَتَساءَلَ عَمّا يَكونُ بِداخِلِهِ ...

وَلَمّا انقَطَعَ الطَّلَبُ عَنْهُما خَرَجا، بَعْدَ أَنْ جاءَهُما عَبْدُ اللهِ بْنُ أُرْقَط – وهوَ مِنَ المــُشْرِكيْنَ، كانا قَدِ استَأْجَراهُ لِيَدُلَّهُما عَلى الطُّرُقِ الخَفِيَةِ إلى المــَدِيْنَةِ بَعْدَ أَنِ اِطْمأَنّا إِلَيْهِ، وَواعَداهُ مَعَ الرّاحِلَتَيْنِ عِنْدَ الغارِ – فَسارا مُتَّبِعَيْنِ طَرِيْقَ السّاحِلِ بِإِرْشادٍ مِنْ عَبْدِ اللهِ بنِ أَرْقَط.

خَبَرُ سُراقَةَ بْنِ مالكٍ:

كانَ مُشْرِكو مَكَّةَ قَدْ جَعَلوا لِكُلِّ مَنْ يأْتي بِرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأَبي بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عنهُ دِيَةَ كُلٍّ مِنْهُما.

يَقولُ سُراقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ بْنِ مالِكٍ: جاءَنا رُسُلُ كُفّارِ قُرَيْشٍ، يَجْعَلونَ في رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَأَبي بَكْرٍ، دِيَةَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما، مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ، فَبَيْنَما أَنا جالِسٌ في مَجْلِسٍ مِنْ مَجالِسِ قَوْمي بَني مُدْلِجٍ، أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، حَتَّى قامَ عَلَيْنا وَنَحْنُ جُلوسٌ، فَقالَ يا سُراقَةُ: إِنّي قَدْ رَأَيْتُ آنفاً أَسْوِدَةً (أَشْخاصاً) بِالسّاحِلِ، أُراها مُحَمَّداً وَأَصْحابَهُ، قالَ سُراقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلاناً وَفُلاناً، انْطَلَقوا بِأَعْيُنِنا، ثُمَّ لَبِثْتُ في المَجْلِسِ ساعَةً، ثُمَّ قُمْتُ، فَدَخَلْتُ، فَأَمَرْتُ جارِيَتي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسي، وَهِيَ مِنْ وَراءِ أَكَمَةٍ[1]، فَتَحْبِسَها عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحي، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ (خَلْفِ) البَيْتِ، ... حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسي فَرَكِبْتُها،

[1] الأكمة: الرّابيةُ المرتفعةُ عنِ الأَرضِ.

فَرَفَعْتُها[1] تُقَرِّبُ بِي، حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسي، فَخَرَرْتُ عَنْها، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدي إِلَى كِنانَتِي، فاسْتَخْرَجْتُ مِنْها الأَزْلاَمَ فاسْتَقْسَمْتُ بِها: أَضُرُّهُمْ أَمْ لاَ، فَخَرَجَ الَّذي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسي، وَعَصَيْتُ الأَزْلاَمَ، تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذا سَمِعْتُ قِراءَةَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وَهوَ لاَ يَلْتَفِتُ، وَأَبو بَكْرٍ يُكْثِرُ الالْتِفاتَ، ساخَتْ يَدا فَرَسي في الأَرْضِ، حَتَّى بَلَغَتا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْها، ثُمَّ زَجَرْتُها فَنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْها، فَلَمّا اسْتَوَتْ قائِمَةً، إِذا لأَثَرِ يَدَيْها عُثانٌ ساطِعٌ في السَّماءِ مِثْلُ الدُّخانِ، فاسْتَقْسَمْتُ بِالأَزْلاَمِ، فَخَرَجَ الَّذي أَكْرَهُ، فَنادَيْتُهُمْ بِالأَمانِ فَوَقَفوا، فَرَكِبْتُ فَرَسي حَتَّى جِئْتُهُمْ، وَوَقَعَ في نَفْسي حينَ لَقيتُ ما لَقيتُ مِنَ الحَبْسِ عَنْهُمْ، أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلوا فيكَ الدِّيَةَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبارَ ما يُريدُ النّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزّادَ والمَتاعَ، فَلَمْ يَرْزَآني وَلَمْ يَسْأَلاني، إِلّا أَنْ قالَ: «أَخْفِ عَنّا».

فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لي كِتابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ عامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ في رُقْعَةٍ مِنْ أَدَمٍ.

ثُمَّ مَضَى رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم[2].

ثُمَّ عادَ سُراقَةُ أَدْراجَه إِلى مَكَّةَ يَحرُسُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ومَنْ معهُ وَيَصرِفُ أَنْظارَ النّاسِ عَنْه بِما يَراهُ مِنَ القَوْلِ، بعدَ أَنْ كانَ قدِ انطلقَ في الصَّباحِ جاهِداً في اللَّحاقِ بِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لأَجلِ الفوْزِ بِعَطاءِ كفّارِ قُريشٍ.

---

[1] رَفَعْتُها: أي أَسرَعْتُ بِها السَّيْرَ.

[2] أخرجه بتمامه البخاري في بابُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وَأَصْحابِهِ إِلَى المَدينَةِ (3906).

قُدومُ قُباء

وصَلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قُباءَ، فاستقبَله منْ فيها وأَقامَ فيها بضعَةَ أَيّامٍ نازلاً على كُلثومِ بنِ هِدْمٍ، حيثُ أَدرَكَه فيها عليٌّ رَضيَ اللهُ عنهُ بعدَ أَنْ أدَّى عنهُ الوَدائعَ إِلى أَصْحابِها.

وأَسَّسَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم هناكَ مسجد قُباء، وهوَ المَسجِدُ الَّذي وَصفَه اللهُ تعالى بقولِه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقومَ فيهِ . .﴾ الآية [التوبة: 108] .

ثُمَّ واصَلَ سَيرهُ إِلى المَدينَةِ فدَخَلَها لاثنَتي عشْرةَ ليلة خَلتْ منْ رَبيعٍ الأَوَّل[1].

جاءَ في سيرة ابن كثيرٍ: كانَتِ الأَنْصارُ قَدِ اجْتَمَعوا ... فَمَشَوْا حَوْلَ ناقَتِهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، لا يَزالُ أَحَدُهُمْ يُنازِعُ صاحِبَهُ زِمامَ النّاقَةِ شُحّاً عَلَى كَرامَةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وَتَعْظيماً لَهُ.

وَكُلَّما مَرَّ بِدارٍ مِنْ دَوْرِ الأَنْصارِ دَعَوْهُ إِلَى الْمَنْزِلِ فَيَقولُ صلَّى الله عليه وسلَّم: دَعوها فَإِنَّها مَأْمورَةٌ، فَإِنَّما أَنْزِلُ حَيْثُ أَنْزَلَني اللهُ.

فَلَمّا انْتَهَتْ إِلَى دارِ أَبي أَيّوبَ بَرَكَتْ بِهِ عَلَى الْبابِ، فَنَزَلَ فَدَخَلَ بَيْتَ أَبي أَيّوبَ حَتَّى ابْتَنَى مَسْجِدَهُ وَمَساكِنَهُ.

---

[1] مروج الذهب: (279/2)، ط بيروت.

قالَ ابْنُ إِسْحاقَ: لَمّا بَرَكَتِ النّاقَةُ برسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمْ يَنْزِلْ عَنْها، حَتَّى وَثَبَتْ فَسارَتْ غَيْرَ بَعيدٍ، وَرسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم واضِعٌ لَها زِمامَها لا يَثْنيها بِهِ، ثمَّ التَفتَتْ خَلْفَها فَرَجعَتْ إِلَى مَبْرَكِها أَوَّلَ مَرَّةٍ فَبَرَكَتْ فيهِ، ثُمَّ تَحَلْحَلَتْ وَرَزَمَتْ وَوَضَعَتْ جِرانَها؛ فَنَزَلَ عَنْها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

فاحْتَمَلَ أَبو أَيّوبَ خالِدُ بْنُ زَيْدٍ، رَحْلَهُ فَوَضَعَهُ في بَيْتِهِ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

وَخَرَجَتْ جَوارٍ مِنْ بَني النَّجّارِ يَضْرِبْنَ بِالدُّفوفِ وَهُنَّ يَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوارٍ مِنْ بَني النَّجّارِ * يا حَبَّذا مُحَمَّدٌ مِنْ جارِ

فَخَرَجَ إِلَيْهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فَقالَ «أَتَحبونَني؟» فَقالوا: إي واللهِ يا رسولَ اللهِ، فَقالَ: «وَأَنا واللهِ أُحِبُّكُمْ، وَأَنا واللهِ أُحِبُّكُمْ، وَأَنا واللهِ أُحِبُّكُمْ»[2].

يقول العلامة البوطي رحمه الله تعالى مُعلِّقاً على ما تقدَّمَ منْ أَحْداثٍ: تكشِفُ لنا الصّورةُ التي استَقبلَت بِها المَدينَةُ المُنوَّرةُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عنْ مَدى المَحبَّةِ الشَّديدةِ التي كانتْ تَفيضُ بِها أَفئدَة الأَنْصارِ مِنْ أَهلِ المَدينَةِ رِجالاً وَنساءً وأطفالاً. لقَدْ كانوا يَخرُجونَ كلَّ يومٍ إِلى ظاهِرِ المَدينَةِ يَنتَظِرونَ تَحتَ لفحِ الشَّمسِ وصولَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إِليهِم، حَتَّى إِذا هبَّ النَّهار ليُدبِر، عادوا أَدْراجَهم ليَعودوا إِلى الانتِظارِ صَباحَ اليَومِ الثّاني، فلَمّا طلعَ الرَّسولُ عليهم جاشَتِ

---

[1] السّيرة النَّبويَّة لابن كثير (273/2).

[2] السّيرة النَّبويَّة لابن كثير (274/2)

العَواطِفُ في صُدورِهم وانطلَقتْ أَلسنَتُهم تَهتفُ بالقَصائدِ والأَهازيجِ فَرحاً لِمَرْآهُ علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام ومَقدَمِه عليهِم، ولقَدْ بادَلَهمُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم المَحبَّة ذاتَها، حَتَّى إنَّه جعلَ ينظرُ إلى ولائدِ بَني النَّجارِ من حولِه، وهُنَّ يُنشِدْن ويَتغنَّينَ بمَقدمِه، قائلاً: «أَتُحبِبْنَني؟ واللهِ إنَّ قَلْبي لَيُحِبُكُنَّ» .

كلُّ هَذا يدلُّنا على أنَّ مَحبَّة رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليسَت كَما توهَّمَ بعضُهم مجرَّد الاتّباعِ لهُ، بلْ وإنَّما هيَ أَساسُ الاتِّباعِ ومَصدَرُه، فلَولا المَحبَّة العاطفيَّة في القلبِ لَما وُجِدَ وازِعٌ يَحمِلُ على الاتِّباعِ في العَملِ.

ولقدْ تاهَ قومٌ حَسِبوا أنَّ محبَّة رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليسَ لَها معنى إلّا الاتِّباع والاقتِداء. وَفاتَهم أنَّ الاقتِداءَ لا يأْتي إلّا بوازِعٍ وَدافعٍ، ومعاذ الله أنْ يستقِلَّ الإيْمانُ العَقليُّ وحدَه بإيجادِ هَذا الوازِعِ.

وإلّا فكَمْ مِنْ مؤمِنٍ وموقِنٍ باللهِ وبنبوَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بعقلِه الأَعزَل، ولكنَّ عواطِفهُ وأَهواءَه مُنصرِفةٌ إلى محبَّة شيءٍ منْ مَظاهِرِ الدُّنيا، فلا يَقودُه إيْمانُه خُطوةً واحدةً في طريقِ الاتِّباعِ[1].

صورَةُ مقامِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في بيْتِ أَبي أَيّوبَ

حَدَّثَ أَبو أَيّوبَ رضي الله عنه عَنْ أَيّامِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عِنْدَهُ، فَقالَ: لَمّا نَزَلَ عَلَيَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في بَيْتي، نَزَلَ في السُّفْلِ، وَأَنا وَأُمُّ

[1] ينظر فقه السّيرة (140).

أَيّوبَ في الْعُلْوِ، فَقُلْتُ لَهُ: يا نَبيَّ اللهِ، بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي، إنّي لأَكْرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكونَ فَوْقَكَ، وَتَكونَ تَحْتي، فاظْهَرْ أَنْتَ فَكُنْ في الْعُلْوِ، وَنَنْزِلَ نَحْنُ فَنَكونَ في السُّفْلِ، فَقالَ: "يا أَبا أَيّوبَ، إنَّ أَرْفَقَ بِنا وَبِمَنْ يَغْشانا، أَنْ نَكونَ في سُفْلِ الْبَيْتِ"، قالَ: فَكانَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في سُفْلِهِ، وَكُنّا فَوْقَهُ في الْمَسْكَنِ، فَلَقَدْ انْكَسَرَ حُبٌّ (جَرَّة) لَنا فيهِ ماءٌ فَقُمْتُ أَنا وَأُمُّ أَيّوبَ بِقَطيفَةٍ لَنا، ما لَنا لِحافٌ غَيْرَها، نُنَشِّفُ بِها الْماءَ، تَخَوُّفاً أَنْ يَقْطُرَ عَلَى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذيَهُ.

قالَ: وَكُنّا نَصْنَعُ لَهُ الْعَشاءَ، ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إلَيْهِ، فَإذا رَدَّ عَلَيْنا فَضْلَهُ تَيَمَّمْتُ أَنا وَأُمُّ أَيّوبَ مَوْضِعَ يَدِهِ، فَأَكَلْنا مِنْهُ نَبْتَغي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، حَتَّى بَعَثْنا إلَيْهِ لَيْلَةً بِعَشائِهِ وَقَدْ جَعَلْنا لَهُ بَصَلاً أَوْ ثوماً، فَرَدَّهُ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وَلَمْ أَرَ لِيَدِهِ فيهِ أَثَراً. قالَ: فَجِئْتُهُ فَزِعاً، فَقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي، رَدَدْتَ عَشاءَكَ، وَلَمْ أَرَ فيهِ مَوْضِعَ يَدِكَ، وَكُنْتَ إذا رَدَدْتُهُ عَلَيْنا، تَيَمَّمْتُ أَنا وَأُمُّ أَيّوبَ مَوْضِعَ يَدِكَ، نَبْتَغي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، قالَ: "إنّي وَجَدْتُ فيهِ ريحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَأَنا رَجُلٌ أُناجي، فَأَمّا أَنْتُمْ فَكُلوهُ»، قالَ: فَأَكَلْناهُ، وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدُ[1].

وَكانَ أَمامَ دارِ أَبي أَيّوبَ رضي الله عنه مِرْبَدٌ[2] لِغُلامَيْنِ يتيمين من بَني النجار الأنصاري، فَقالَ النّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «ههنا المترل إن شاء الله».

---

[1] سيرة ابن هشام (498/1 - 499) وينظر الإصابة لابن حجر: (405/1)، وترتيب مسند الإمام أحمد: (292/20).

[2] أرض يُجفَّف فيها التَّمر.

يَقولُ العلّامةُ البوطيّ في تعليقِه على ما حَدَّثَ بِهِ أَبو أَيّوبَ رضي الله عنه: أَمّا الصّورةُ التي رأيناها في مقامِه صلَّى الله عليه وسلَّم عِنْدَ أَبي أَيّوبَ الأَنْصاريّ في مترلِه، فتكشِفُ لنا مَظهَراً آخرَ منْ محبَّة أَصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لهُ.

والذي يهمُّنا منْ ذَلكَ هُنا، هوَ التَّأمُّلُ في تبرُّكِ أَبي أَيّوبَ وزوْجِه، بآثارِ أَصابِعِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في قصْعَة الطَّعامِ، حينَما كانَ يردُّ عليهِما فضْلَ طعامِه. إِذنْ فالتَّبرُّك بآثارِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَمرٌ مَشروْعٌ قدْ أَقرَّه.

وقَدْ رَوى البُخاريُّ ومُسْلمٌ صوَراً كَثيرةً أُخْرى مِنْ تَبَرُّكِ الصَّحابَةِ بِآثارِ النَّبيِّ علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام والتَّوسُّلِ بِها للاِسْتِشْفاءِ أَوِ العِنايَةِ والتَّوْفيقِ وما شابَهَ ذَلِكَ.

من ذلكَ ما رواهُ البخاريُّ[1] عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ورضي عنها أَنَّها كانَتْ تَحْتَفِظُ بِشَعَراتٍ مِنْ شَعَرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في جُلْجُلٍ لَها[2]، فَكانَ إِذا أَصابَ أَحَداً مِنَ الصَّحابَةِ عَيْنٌ أَو أَذًى أَرْسَلَ إِليها إِناءً فيهِ ماءٌ فَجَعَلَتِ الشَّعَراتِ في الماءِ، ثُمَّ أَخَذوا الماءَ يَشْرَبونَهُ توسُّلاً للاسْتِشْفاءِ وتَبَرُّكاً بِهِ.

ومن ذلك ما رواه أَنَسِ بْنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنهُ قالَ: كانَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَدْخُلُ بَيْتَ أُمِّ سُلَيْمٍ فَيَنامُ عَلَى فِراشِها، وَلَيْسَتْ هيَ في البَيْتِ، قالَ: فَجاءَ ذاتَ يَوْمٍ فَنامَ عَلَى فِراشِها، ... فَجاءَتْ (أُمُّ سُلَيْمٍ) وَقَدْ عَرِقَ (رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم) واسْتَنْقَعَ عَرَقُهُ عَلَى قِطْعَةِ أَدِيمٍ عَلَى الْفِراشِ، فَفَتَحَتْ عَتيدَتَها[3] فَجَعَلَتْ

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب اللباس، في باب (ما يذكر في الشيب) (5896).

[2] (ما يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانته)

[3] العتيدة كالصندوق الصغير تجعل فيه المرأة ما يعز من متاعها.

تُنَشِّفُ ذَلِكَ الْعَرَقَ فَتَعْصِرُهُ فِي قَوارِيرِها، فَفَزِعَ النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فَقالَ: «ما تَصْنَعينَ يا أُمَّ سُلَيْمٍ؟» فَقالَتْ: يا رسولَ اللهِ نَرْجو بَرَكَتَهُ لِصِبْيانِنا! قالَ: «أَصَبْتِ»[1].

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين من استباق الصَّحابة إلى فضل وضوئه علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام والتَّبرُّك بالكثير من آثاره كألبسته والقدح الذي كانَ يشرب فيه[2].

فإذا كانَ هَذا شأن التَّوسُّل بآثاره المادية المنفصلة عنه، فكيف بالتَّوسُّل بمترلته عِنْدَ الله جلَّ جلاله وبكونه رحمة مهداة من الله للعالمين؟

ولا يذهبن بك الوهم إلى أننا نقيس التَّوسُّل على التَّبرُّك ...، فإن **التَّوسُّل والتَّبرُّك** كلمتان تدلان على معنى واحد "**وهو "التماس الخير والبركة عن طريق المتوسّل به**".

---

[1] رواه مسلم في كتاب الفضائل في باب طيب عرقه صلَّى الله عليه وسلَّم (2331).

[2] يرى بعضُهم أنَّ مثل هَذِهِ الأحاديث لا فائدة منها في هَذا العصر. وهذا كلام خطير ما ينبغي أن يتفوَّه به مسلمٌ، فجميع أقوال الرَّسول وأفعاله وإقراراته تشريع، والتَّشريع باق مستمِّر إلى يوم القيامة ما لم ينسخه كتابٌ أو سنَّة صحيحةٌ. ومن أهم فوائد التشريع ودلالاته معرفة الحكم والاعتقاد بموجبه. وهذه الأحاديث الثَّابتة الصَّحيحة لم ينسخها كتابٌ ولا سنَّة مثلها فمضمونها التَّشريعيّ باقٍ إلى يوم القيامة. ومعنى ذلك أنَّه لا مانع من التَّوسُّل والتَّبرُّك بآثار النَّبيِّ علَيْهِ الصَّلاة والسَّلام فضْلاً عن التَّوسُّل بذاتِه وجاهه عِنْدَ الله تعالى، وإن ذلك ثابتٌ ومشروعٌ مع الزَّمن، فكيف يُقال مع ذلك: إنَّه لا فائدة منها في هَذا العصر؟ .. أكبر الظَّنِّ أن السَّبب الذي ألغى فائدتها بنظر هؤلاء، أنَّها تخالف مذهبهم في التَّوسُّل، غير أن ذلك وحده لا يكفي موجباً لنسخها وانتهاء فائدتها كما هو معلوم. فقه السيرة: (141) بتصرُّفٍ طفيف

وكلٌّ من التَّوسُّل بِجاهِه صلَّى الله عليه وسلَّم والتَّوسُّل بآثارِه جزئياتٌ داخلةٌ تحتَ كُلّيِّ التَّوسُّل، وإِنَّما مَناطُ التَّوسُّل في كلِّ صوَرِه وُجزئياتِه مترلَةُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عِنْدَ ربِّهِ وكَونِه رحمة مُهداة للعالَميْنَ.

ومن ثُمَّ فإنَّ الفرقَ يسقُط بينَ أَنْ يَكونَ التَّوسُّل به صلَّى الله عليه وسلَّم في حالِ حياتِه أو بعدَ وَفاتِه، فإنَّ مناطَ التَّوسُّل باقٍ، وهوَ مترلتُه صلَّى الله عليه وسلَّم عِنْدَ ربِّه.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University